من القصص العالمي ٧٠

هنري جيمس

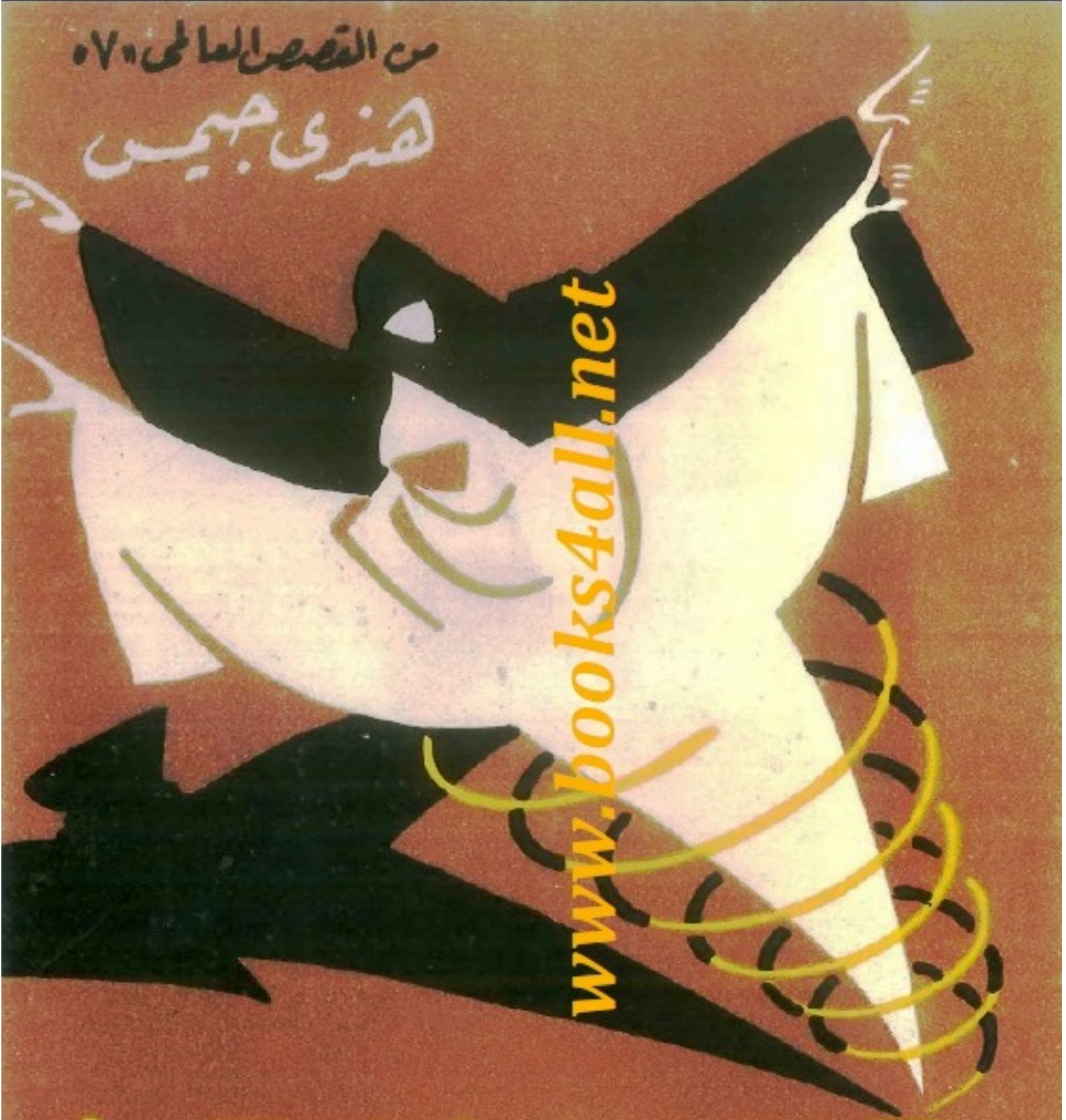

www.books4all.net

دورة اللولب

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

ترجمة

عبدالله البشير

ثروت أباظة

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://www.facebook.com/books4all.net

دَوْرَةُ اللَّوْلَبْ

نشر هـذا الكتاب بالاشتراك
مـع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
القـاهرة ـ نيويورك

دَوْرة اللّوْلبُ

تأليف

هنري جيمس

ترجمة وتقديم

عبد الله البشير　　　ثروت أباظة

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

هذه الترجمة مرخص بهـــا وقد قامت مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق ٠

This is an authorized translation of THE TURN OF THE SCREW, by Henry James. First published in the United States of America in 1838 by the Macmillan Company, New York.

مقدمة

هنرى چيمس

ولد أمريكيا ومات انجليزيا ، ولو لم تتردد أمريكا طويلا فى دخول الحرب الى جانب الحلفاء ما غير جيمس جنسيته . ولكنها ترددت وطال بها التردد فتجنس هو بالجنسية البريطانية فى يوليه سنة ١٩١٥ .

على أن هذا الميل الى انجلترا كان قد استقر فى نفسه منذ زمن طويل ، فقد كانت عاطفتان فى نفس هنرى جيمس تتنازعانه فى عنف . أما احداهما فحب لأوروبا وحماسة لها ، وتتجلى هذه النزعة أوضح ما تتجلى فى ذكرياته التى ضمنها كتابه The Middle Years(أواسط العمر) الذى صدر عام ١٩١٧ .

كان جيمس يحب أوروبا لأنها تمتاز عنده عن أمريكا بتاريخ غنى ضارب الأعراق فى جذور السنين ، تتواكب فيه الذكريات عن الآداب والفنون فاذا هى بذكرياتها تلك أكثر حياة من ذلك المسرح الصاخب على الجانب الآخر من المحيط

الأطلنطى . وهكذا كان جيمس يرى أن مجرد تناول الافطار فى لندن مغامرة حافلة بالمتع والرؤى والذكريات يعمرها الشخوص الخالدة كبيرون وشريدان وسكوت ومور والكثيرون غيرهم . بل لقد كان يرى أن كل من بانـدن فى العهد الفكتورى يعتبر فى ذاته ذخيرة من الذكريات ومصدرا ضخما لأحداث التاريخ ، ولا فارق ثمة عنده بين أن يكون من عاش بلندن اذ ذاك شخصا حيا أم شيئا جامدا. وهكذا وطد هنرى عزمه على أن يصل أسبابه بأقوى الوشائج بهذه الأمجاد الفنية والأدبية .

وقد رسم هنرى نفسه كيف استخفه الطرب حين سنحت له أول فرصة للقاء چورچ اليوت . وكيف طار ملهوفا الى هذا اللقاء ليبدأ فى طريقة مسرحية أول طريقه فى الماضى المجيد .

هذه اذن هى أولى النزعتين ، على أننا لا نستطيع أن نفهمها كل الفهم الا اذا عرفنا النزعة الثانية التى كانت تتنازعه وتسيطر عليه وتتحكم فى سلوكه ، فقد كانت هذه النزعة الثانية أعمق جذورا فى نفسه من النزعة الأولى . وكانت نزعته العنيفة هذه هى نزعته الفنية ، وكان أقوى ما فيها حبه للفن الواقعى ، فما كانت رحلاته الى لندن وسواها الا ليجمع ذخيرة من المواد تكون عونا له حين يجلس الى

العمل . وهكذا لم يكن عجيبا أن يكون تأثره بما اكتسبه من رحلاته واضحا أشد الوضوح فى أعماله ، حتى لقد بدت خبراته التى اكتسبها من نيويورك وبوستن شاحبة هزيلة اذا ما قورنت بخبراته النابتة من لندن . فهو يرى أن العالم القديم سبق الجديد بالطمأنينة والبشر والجمال ،كما يرى أن هذا العالم القديم كان أحنى على الانسان وأكثر حدبا عليه وارتباطا به وحبا له .

ولم يقتصر الأمر عنده على الاعجاب بالارتباط بين شىء أو شخص وبين الماضى ، بل لقد كان يصحب بهذه الخيوط التى تجمع أشياء كثيرة بعضها الى بعض ثم تصلها جميعا بالماضى .

ولم تكن أسفار جيمس الى الخارج مقصورة علىجميع المواد لمؤلفاته ، بل انه كان يجد فى الخارج الجو المهيأ لذهنه أن يعمل ، ولقلمه أن يسطر . فثمة كان يتصل بأساتذة ويستلهم هذه الصلات حين يفرغ الى عمله . كما كان يستطيع أن يغوص فى أعماق هذه الذكريات ويلقى بنفسه فى دفاعها ، مراقبا الحركات الأدبية التى كانت من أهم العوامل التى سعت به الى التطور والكمال الفنى .

وهكذا يبدو أن كاتبنا قد تأثر بكل شىء عدا الحياة

الأمريكية فاذا تأملنا الصورة فى قصصه تبين لنا الى أى مدى لم تتأثر كتابات جيمس بالحياة الأمريكية .

فهى صورة ليست أمريكية . واهتمامه هو بمعالم الصورة ووقائعها أمر غريب على الذوق الأمريكى . فهو جانح الى العالمية شأنه فى ذلك شأن ألن بو .

كان جيمس عميق الاعجاب بهوثورن ولم يكن أقل اعجابا ببلزاك وجورج ساند الا أنه مدين بفنه ، وخصائصه المميزة فى علاج القصة لكتاب متأخرين لا الى هؤلاء الذين أشرنا اليهم . وانتاجه بعيد عن الأمريكية قريب الى الأوروبية . وان تكن كتاباته دائرة فى معظمها حول أشخاص أمريكيين الا أنه يسلط عليهم أضواء أوروبية . فأشخاص أغلب قصصه وأقاصيصه أمريكيون فى الخارج ، أو لعلهم أمريكيون فى الداخل ، ولكن الضوء الذى تراهم فى غماره مشع عليهم من وجهة نظر أجنبية .

ويمكن تقسيم قصصه فى هذا الصدد الى مجموعات ثلاث تقع فى ثلاث فترات زمنية .

ففى الفترة الأولى التى تقع بين « رودريك هدسون Roderick Hudson » و « البوستونيون The Bostonions

(١٨٧٥ — ١٨٨٥) كان الأشخاص الرئيسيون أمريكيين دون استثناء ، وان تكن الحوادث قد وقعت خارج أمريكا.

وفى الفترة الثانية من الأميرة كازاماسيما The Princess Casamassima الى النافورة المقدسة The Secred Fount (١٨٨٥ — ١٩٠١) تقصر القصص مجالها على المجتمع الانجليزى . وفى الفترة الثالثة من جناحا اليمامة The wings of the Dove إلى القصص التى مات المؤلف قبل اتمامها (١٩٠٢—١٩١٧) عاد جيمس الى موضوعه الأثير : أمريكيون فى باريس ، أو البندقية ، أو لندن . ولكن الجو الأمريكى الذى كان يرسمه ظل مع ذلك متخلفا عن الأصالة الفنية الكبيرة التى اتسمت بها أعماله الأخرى ؛ فنيويورك عنده هى ميدان وشنطن Washington Square ١٨٨١ . وهو حين يصور بوستن فى رواية « الأوربيون The Europeans » ١٨٧٨ أو حين يصور البوستنيون The Bastonions ترى الصورة مهتزة المعالم ، باهتة الألوان ، خصائص الشخصيات فيها غير جلية . ولكنه ان تناول الأمريكيين المهاجرين فكهين كانوا أم خياليين جعل منهم جزيرة مميزة المعالم ، أمريكية الملامح والألوان .

وينقسم هؤلاء الأمريكيون بالخارج الى طائفتين ، طائفة يعالجها فى فكاهة ضاحكة تظهر سذاجتهم الأمريكية البسيطة ، وهو غالبا يتناولهم فى حدب واشفاق .

ولم يفت جيمس أن يصور شخصيات أمريكية مغايرة فى مجموعة أخرى من قصصه ، وقد قصد فى هذه المجموعة أن ينأى بشخصياته الأمريكية عن الفكاهة والسخرية وانما راح يرسمهم وقد شع منهم نور روحانى سامق ، وهـذا ما جعل « ريبكا وست » تقول عن شخصيات جيمس انهن « عوانس فضليات من أمريكا » .

وفى أضواء هذه الصور ترى الروح الأمريكية الصحيحة فى جيمس ، اذا جاز لنا أن ندعوها بهذا الاسم ، فاننا نتبين فى تقدير جيمس للقيم الروحية معنى بالغ الرقة ، بعيـدا عن المادية كل البعد ، يصدف عن النجاح أو السعادة أو أية أمور بعيدة عن الروحانية نافرا من كل شىء عملى . وهكذا يذكرنا اتجاهه هذا بالتسامى فى فلسفة أمرش ، والاعراض عن أمور هذه الدنيا عند هرثورن . وهكذا نجـد جيمس يختلف فى فلسفته كل الاختـلاف عن فلسفة سكوت أو ثكرى أو حتى چورچ اليوت أو أى قصاص بالقارة الأوربية، ولا مناص من اعتبارها فلسفة أمريكية منبتها نيوانجلند .

* * *

كان وليم جيمس جد كاتبنا ايرلنـديا أقام فى ولاية ألبانى بأمريكا . وكان من الظاهرين فى رجال الأعمـال ،

وترك من خلفه عدة ملايين من الدولارات اقتسمها ورثته الاثنا عشر . واذا استثنينا هذا الجد وجـدنا باقى أسرة جيمس بعيدة عن الأمور العملية . فأبوه هنرى جيمس قسيس فيلسـوف وصـديق لأمرسـون لا يمشى الا مصطحبا مجموعة كاملة من مؤلفاته سويدنبورج Swedenborg .

وقد رزق بابنه الأصغر كاتبنـا هنرى جيمس — فى الخامس عشر من أبريل سنة ١٨٤٣ بنيويورك . وقد صحبه فى رحلة الى أوروبا وهو مايزال يحمل على الأذرع .وهكذا لم يكن عجيبا أن يتسم تفكيره فى الحضـارة بالصـورة الأوربية . وقد كان هنرى يقرأ القصص الانجليزى بصوت عال فى بيوت أسرته ، فغذى هذا خياله وأثر فى انطباعاته . وقد كان يذهب مع اخوته بانتظام الى مكتبه بنيـويورك ليبتاعوا مجلة أطفال تصدر فى لندن ، وقـد كان تعليمهم متنوعا متعدد الجوانب واسع المجـال على نحـو يصنـع القصاصين أكثر مما يصنع الفلاسفة . فقد مر بهم عشرات من المربين ومروا هم بعشرات من المدارس الخاصة ، وقد تم هذا المرور جميعه فى نيويورك وبسرعة خارقة . ثم راحوا بعد ذلك يمرون ببلدان كثيرة ويتلقون العلم فى مدارسها ، فمن بون الى جنيف الى باريس الى لندن .

وما كان يشغل كاتبنا طوال هـذه المدة الا الملاحظـة التأملية للأشخاص ، وقد كانت حياته فى ألبانى ونيويورك فى وسط هيأ له أن يفهم القيم الفنية تمام الفهم ، فقد كان كل شخص يعرفه نموذجا له أهميته الفنية . فهو يرسم لك نموذجا للمغامرة الفرنسية حين يشير الى المربيات ورئيسات الخـدم ، ثم يرسم أبنـاء العم الذين فقدوا أبويهم ، ثم يرسم الشبان الجامحين ، أو يرسم السادة الانجليز وغيرهم وغيرهم مما أوحت به اليه تلك الحياة التى قضاها . ولعل من أهم ما تأثر به أن أباه كان قسيساوقد أخذ أولاده بنظام منهجى ، وهـكذا دار هنرى بجميع الكنـائس دون أن تفوته ملاحظة أثر الدين فى طريقة احساسهم بالجمال .

لم يكن الأب متعجلا فى تقرير العمـل الذى يهيىء له بنيه ، فقد كان يخشى أن يحد من نمو الحياة النفسية فيهم قبل الأوان . وقد كان لهذا أثر فى قصص جيمس ، فهـو قليل الاهتمام بالأعمال التى يقوم بها الناس لكسب عيشهم. ويبدو أن الشاب الأمريكى فى ذلك الحين لم يكن ينتظر الا واحدا من مصيرين ، اما أن يحيا حياة الأعمـال أو هـو ملاق للخيبـة والفشـل واليـأس . لكن أسرة جيمس وأصدقاءها كانوا معجبين باللون الأجنبى من الحياة ، ذلك

اللون الذى يهيىء للشباب مصيرا ثالثا ليس أقل صرامة من هذين المصيرين .. مصير الشخص المثقف الذى يتمتع بالفراغ .

وفى سنة ١٨٦٠ رحلت أسرة جيمس الى نيويورك ، فرحب هنرى بهذه الفرصة وراح يتردد مرسم يملكه رجل محترف . ثم التحق بمدرسة الحقوق فى هرفرد . وكان همه فى كل محلة ينزل بها ، أو محاضرة يستمع اليها ، أن يراقب الأشخاص والموسيقى وطريقة العرض أكثر مما يراقب القانون والمواد وتطبيق العقوبات .ويبدو أنالحرب الأهلية الأمريكية كانت هىالحقيقة الأمريكيةالوحيدة التى تسربت الى وعى هنرى جيمس واستقرت فيه واضحة المعالم قوية الخطوط . واذا كان العرج قد قعد به عن الاشتراك الفعلى فى الحرب فقد شارك فى الحرب مشاركة وجدانية كاملة عن طريق أخوين له كانا بين المحاربين . فكانت الحرب عنده ككل شىء آخر أمرا يتتبعه بلهفة كأنه مسرحية زاخرة بالقيم الفنية .

وحين نشبت الحرب العالمية الأولى كان أشد الناس حماسة لقضية الحلفاء ، لأنها كانت ترتبط عنده بكل ما هو كريم غال عزيز على النفس . حتىليقال ان المرض الذىمات

به نتج عن تلك الحماسة القاتلة التى تناول بها عملية اغاثة المشردين البلجيكيين والفرنسيين .

ونستطيع تقسيم قصص جيمس الى فترتين زمنيتين اتسمت كل فترة منهما بمعالم مختلفة عن الأخرى . القسم الأول من عام ١٨٧٥ الى عام ١٨٩٥ . والثانى من عام ١٨٩٦ الى عام ١٩١٧ .

وقد كانت قصص المجموعة الأولى أغنى فى مادتها عن المجموعة الثانية ، كما أنها كانت أكثر تفاعلا بالحوادث التى تستغرق من الوقت أطول مما كانت تستغرقه حوادث المجموعة الثانية . وقد كان يعالج فى هذه المجموعة الأولى أشخاصه وحوادثه بروح انجليزية واضحة الحياة .

وقد عنى جيمس فى السنوات الست التى تفصل المجموعة الأولى عن المجموعة الثانية بكتابة الأقاصيص . وقد كان فيها ميالا لايثار الشخصية على الحادثة ، وايثار الموقف على الشخصية ، والمقصود بالموقف هو العلاقة بين الأشخاص . وقد كان فى هذه المواقف يؤثر ما كان بعيدا عن المألوف ، الأمر الذى قد لا يستهوى القارىء لأول وهلة حتى اذا أنعم فيه النظر وتعمقه فى حس مرهف دقيق ما لبث أن أعجب به.

ودورة اللولب التى بين يديك تعتبر من أشد قصص الأشباح عمقا وامتلاكا للشعور .

أما المرحلة التالية فقـد كتب فيها قصصه الطويلة على نهج من تجريد المادة وتسلسل الأسلوب وتركيزه والاقلال من الشخصيات والحوادث . ومن بين هذه الكتب روائعه الأخـيرة العصر الكئيب The Awkward Age — ١٨٩٩ والوعاء الذهبى The Golden Bowl — ١٩٠٤ . والسفراء The Ambassadors . وتميل قصص جيمس الى أن تكون سجلا للمرئيات لا للسماعيات . فالأشخاص غير نشيطين فى توجيه مجرى الحوادث لا تشغلهم الا تسجيل أحاسيسهم ، ولقاء المعلومات والظهور على غوامض النفس دون أن ينعقد عزمهم أو يستقر اصرارهم على اتيان جليل الأعمال . على أن هذا كان سمة العصر الذى كتب فيه جيمس .ذلك العصر الذى انتقل من عالم رينان الى عالم سوينبرن ، ثم الى عالم أوسكار وايلد ، ثم الى كتاب لم يزالوا على قيد الحيـاة ذهبوا فى تسجيل التأشيرات النفسية الى أبعد مدى وآثروه على كل عنصر آخر من عناصر القصة . انهم يزهدون فى صخب الحوادث وعنف الانتقال من حالة الى حالة على طريقـة الكتاب الفكتوريين . بل هم أشبه بقوم جلوس حول مائدة للشـاى فيهم دعة وفيهم رقة حس .. وفيهم مع ذلك لهفة ورهبة ولكنها لهفة تستخفى ورهبة مهـذبة كأنهم يؤدون مراسم من طقوس دينهم .. دين الفن .

ثروت أباظه ـ عبد الله البشير

أمسكت بنا القصة حول المدفأة وقد تماسكت أنفاسنا ، فلا تبدر منا الا التعليقات العاجبة تبتعثها غرابة القصة . كانت ليلة عيد الميلاد وكنا فى منزل عتيق فكان حتما أن تلقى الينا قصة غريبة ، ولا أذكر أننى سمعت تعليقا يخرج عن قول بعضهم انها كانت المرة الوحيدة التى لاقى فيها زيارة كهذه تقع لطفل .

ولعله يجدر بى أن أذكر أن شبحا هو الذى كان يقوم بتلك الزيارة ، وكان يقوم بها الى منزل عتيق كهذا الذى يضمنا فى ليلتنا تلك . كان شبحا مخيفا وكان الطفل صغيرا ينـــام فى حجرته مع أمه . فهو يوقظها حين يفزعه الشبح ، يوقظها لا لتزيل خوفه وتعيد اليه نومه الطائر وانما لتلتقى قبل ذلك هى أيضا بنفس المنظر الذى طالعه وأثار رعبه .

وأثار دوجلاس انتباهنا للقصة بملاحظة لم يبدها فور سماعه لها وانما أطلقها فى آخر المساء .

وراح آخر يلقى قصة أخرى لم تكن بذات تأثير حتى لقد لاحظت أن دوجلاس لم يكن يتابعها ، مما دعانى الى الاعتقاد

انه هو نفسه يريد أن يروى لنا شيئا ، وما علينا الا أن ننتظره . والواقع أن الانتظار طال بنا الى ليلتين بعد ذلك ، وان كنا لم نفترق فى ليلتنا تلك قبل أن يبدى لنا ما يدور بخلده قائلا : « فيما يتعلق بشبح جريف أوافق تماما على أن ظهوره لطفل صغير فى هذه السن الباكرة يضفى على القصة سمة خاصة ، الا أنه لم يكن الحدث الأول الذى يتسم بهذا السحر ، وتتصل وقائعه بطفل ما . فان يحدث الطفل تأثيرا بدورة يديرها للمسمار اللولبى فماذا تراك قائلا عن طفلين ؟ » .

وتعجب أحدهم قائلا : « انهما — لا شك — يديرانه دورتين ! واننا لنحب أن نسمع عن أمرهما أيضا » .

أستطيع أن أرى دوجلاس فى مكانه أمام المدفأة التى ولاها ظهره واقفا ناظرا الى الذين يقطعون عليه الحديث وقد وضع يديه فى جيوبه « لم يعرف بهذا الحديث الا أنا ، انه حادث يثير غاية الذعر » وقد أعلن هذا الحديث طبعا بأصوات عديدة ، تضفى عليه أهميته القصوى ، وكان صاحبنا يعد لانتصاره بفمه الهادىء مجيلا عينيه حولنا ماضيا فى حديثه « انها أبعد مما تتخيلون ، فلا شىء مما أعرفه يقاربها » .

وأذكر أننى سألت : « أهى قصة رعب فقط » ؟

وكان يبدو كمن يريد أن يقول انها ليست بهذه البساطة

وانه يقع فى حيرة كبيرة حين يحاول وصفها . ومر بيده على عينه وألقى الينا بايماءة .

« أى رعب ! » .

وصاحت احدى النساء : « يالها من لذة » .

ولم يعر السيدة التفاتا ونظر الى ولكنه بدا وكأنه رأى بدلا منى الشبح الذى يتحدث عنه : « ان هو الا قبح تام ، وفزع وألم » .

فقلت : « لا بأس بك ، فاجلس اذن وابدأ حديثك » .

واستدار الى النار ، وحرك كتلة الخشب فيها ، وأخذ يرقبها هنيهة . وحين واجهنا ثانية :

— لا أستطيع البدء . يجب أن أخابر المدينة .

وعلت زمجرة عامة فيها تأنيب عنيف ، اضطرته أن يشرح لنا وهو ما يزال مشغول الفكر بما يروى عنه :

— ان القصة مكتوبة . انها فى درج مقفل لم تخرج منه منذ سنوات . وأستطيع أن أكتب الى تابعى وأرسل اليه المفتاح ، فيرسل الىّ الأوراق كما يجدها .

وكان يبدو لى انه يعنى ما يقول ، وانه يطلب العون ولا يتردد فى قبوله . وكأنما أزال دوجلاس بقوله ذلك

الغموض الذى كان يحيط به ، فقد اتضح لنا انه كان محقا فى صمته الطويل الذى التزمه . وعارض الآخرون فى التأجيل أما أنا فقد أخذت باللمحات التى أومض بها دوجلاس عن القصة حتى لقد رجوته أن يرسل خطابا فى أول بريد ، لينقع شوقنا المتلهف الى استماع القصة . ثم سألته أكانت القصة من وحى خاطره . فأجاب فى حزم :

— لا ، والحمد لله .

— فهل أنت من كتبتها ، هل أنت الذى دونتها ؟

— ما كتبت الا ما شعرت به نحوها ، لقد تلقفتها هنا .

وربت موضع قلبه وقال :

— ثم لم أضعها .

— فماذا عن المخطوط ؟

— لقد أصبح حبره قديما باهتا وان كان مكتوبا بأجمل خط يد .

وغذى النار ثانية فأشعلها وتابع قوله :

— يد امرأة .. امرأة ماتت فى هـذه العشرين السنة الأخيرة . وقد أرسلت لى هذه الصفحات قبل موتها .

كان الجالسون جميعهم يصيخون السمع ، وكان بينهم

بطبيعة الحال من انحنى فى لهفة ، أو من راح يسبق الحديث بالقفز الى النتيجة ، فان ألقى الينا نتيجته التى وصل اليها ألقاها بغير ابتسامة ولا حماسة .

وتابع دوجلاس حديثه فى هدوء :

— كانت شخصية غاية فى الفتنة ، ولكنها كانت تكبرنى بعشر سنوات . كانت مربية أختى فلم أر مربية بعيدة عن المعارضة بعدها ، كانت خليقة بأى مكان تشغله . كان ذلك من زمن بعيد ، وكانت القصة قبل ذلك بزمن بعيد . كنت فى كلية الثالوث المقدس ، ووجدتها بالمنزل حين عدت اليه فى العطلة الصيفية التالية ، فأكثرت من ترددى عليه فى ذلك العام كان عاما جميلا وكانت لها فى ساعات راحتها نزهات فى الحديقة وأحاديث ، وكان يروعنى من حديثها لباقة فائقة ورقة بالغة ، نعم . لا تهمهموا ، لقد أحببتها غاية الحب ، واننى سعيد حتى اليوم باعتقادى أنها أحبتنى هى أيضا ، فلو لم تكن أحبتنى لما ألقت الىّ بهذه القصة ، فهى لم تخبر بها انسانا غيرى . وان اخبارى بها لم يكن بالأمر الهين بالنسبة لها ، انى أعلن أن الأمر لم يكن يسيرا عليها ، اننى واثق من ذلك ، وان لى لبصيرة . وسوف يسهل عليكم أن تثقوا ثقتى حين تسمعون القصة . فقد كان الأمر مرعبا مخيفا .

ثم راح ينير لى غموض قصته فأعاد قوله « سوف يسهل ذلك » فاستوضحته قائلا :

— فاهم ، كانت محبة .

فضحك للمرة الأولى وقال :

— أصبت ، نعم ، كانت محبة وظلت على حبها حينا ، لقد اتضح لى حبها فى سياق القصة ، فما كانت لتستطيع أن تلقى بقصتها وتخفى أمر حبها .. كشفت حبها ، وقد أدركت أنى كشفت هذا الحب ، ولكنى كنت كشفى وكنت هى ادراكها ، انى أذكر متى ألقت قصتها وأين ألقتها ، كنا فى ركن من حديقة المنزل وقد ألقت الأشجار الضخمة ظلالهـا علينا ، وكنا فى ظهيرة يوم حار من أيام الصيف ، لم يكن فيما نرى أى شىء يبعث هزة لخوف ، ولكن .. هيه ..

ثم راح يخفت لاعج النار المشتعلة ، وألقى بنفسه الى الكرسى . فسألته :

— سوف تتسلم الأوراق ، فى صباح الخميس ؟

— ربما لا تصل الا فى البريد التالى .

— حسنا اذن ، فبعد الغداء من يوم الخميس ستلقوننى جميعكم هنا ؟

ثم شملنا بنظرة ثانية وقال :

— هل سيرحل أحد منكم ؟

وكادت نغمته أن تكون نغمة رجاء .

— جميعنا باق !

فتصايح السيدات اللواتى كن قد انتوين الرحلة « انى باقية .. انى باقية » وطلبت المسز جريفن مزيدا من الاضاءة ثم قالت : « ومن ذلك الذى كانت تحبه ؟ » .

فأخذت على عاتقى مهمة الاجابة :

— سوف تنبئك القصة .

— آه ولكننى لا أستطيع انتظار القصة .

فقال دوجلاس :

— ولن تنبىء القصة عن ذلك ، لن تتخذ طريقا واضحا رخيصا لتنبىء عن ذلك .

— هذا مؤسف للغاية ، فتلك هى الطريقة الوحيدة التى أستطيع أن أفهم بها .

وساءل شخص آخر :

— أما تنبئنا أنت يادوجلاس ؟ .

وقفز دوجلاس على قدميه ثانية قائلا : « نعم ، سأنبئكم غدا ، أما الآن فلابد لى أن أنام ، طاب مساؤكم » .

ثم سارع الى شمعدان فأخذه وتركنا حيارى ، ومن آخر الردهة الواسعة سمعنا خطواته على السلالم ، وحينئذ تكلمت المسز جريفن :

— لئن أخفت القصة اسم الحبيب فانى أعرفه .

وقال زوجها :

— كانت تكبره بعشر سنوات .

— وهذا أدعى للحب فى هذه السن ، وانه لجميل منه أن يبوح بهذا الحب .

فقال جريفن :

— أربعون عاما .

— ثم باح به أخيرا .

فعدت أقول :

— سيكون هذا البوح فى مساء يوم الخميس .

وأمن الجميع على ما أقول وقد أصبحت أذهانهم لا يشغلها الا القصة . ومهما تكن القصة الأخيرة فى الليلة ناقصة أشبه

ما تكون بتمهيد لسلسلة من الكتب ، مهما تكن كذلك فانها على كل حال قد تليت .

تصافحنا وقال أحدهم : « شمعدان » ثم أوينا الى مضاجعنا .

وعلمت فى صباح اليوم التالى أن ظرفا يحتوى على المفتاح قد أرسل فى أول بريد الى المسكن فى لندن ولكن على الرغم من ذلك — أو لعله من أجل ذلك — بقيت الأمور غامضة المعالم .

تركنا دوجلاس منفردا الى ما بعد الغداء ، الى تلك الساعة من المساء التى كانت تحوم حولها آمالنا وحينئذ شارك دوجلاس جمعنا ، أخذ يبدى أوجه الأسباب لانفراده عنا ثم راح يكرر اعتذاره أمام نيران المدفأة فى الردهة حينما كنا نبدى دهشتنا الهادئة مما سمعناه فى الليلة السابقة ومن خلال ذلك اتضح لنا أن القصة التى وعدنا بقراءتها تحتاج فى فهمها فعلا الى ذكاء لماح كما تحتاج الى بعض المقدمات .

وقد آن لى أن أقول ان هذه القصة — وقد قمت بنقلها فيما بعد — هى التى سأرويها لكم الآن .

مسكين دوجلاس ، لقد أعطانى هذه الأوراق قبل وفاته

فور تسلمه لها فى اليوم الثالث من عيد الميلاد . وفى أمسية اليوم الرابع راح يقرؤها فى تأثر بالغ على حلقتنا الصغيرة الصامتة . وكانت السيدات اللواتى انتوين الرحلة واللواتى قلن انهن باقيات قد رحلن ، ولا شك أننا حمدنا الله لارتحالهن فقد ارتحلن وفقا لترتيبات معدة ، يحملن فى نفوسهن ثورة من حب الاستطلاع ابتعثها دوجلاس بلمحاته التى أومض بها من قصته .

وقد كان ارتحال السيدات سببا فى جعل السامعين صفوة ملتئمين .

وألقى دوجلاس قصته حول المدفأة الى السامعين فاذا هم وقد اهتزت لها مشاعرهم .

كانت أولى لمحاته تنبىء عن أن القصة المكتوبة ، لم تبدأ مع الحوادث من أولها وانما اختارحادثة معينة منها لتبدأ بها .

والحقيقة التى لابد من الالمام بها أن صديقته القديمة — وهى ابنـــة لصغرى بنات قسيس قروى — قد رحلت الى لندن وهى فى العشرين من عمرها لتعمل لأول مرة . وقد كان ذهابها اجابة لاعلان قرأته فى الجريدة ، وقد جاءت لندن متهيبة لتقدم نفسها الى المعلن .

وقد اتضح هذا المعلن — الذى يقطن منزلا بشارع هارلى راعها باتساعه وضخامته — اتضح المعلن عن سيد يتسم بالكياسة ، يقطع السنوات الغضة من حياته عزبا بغير زوجة ، رائع الشباب ، لم تر مثيلا لهيئته الا فى حلم أو قصة قديمة ، وقد مثلت أمامه فتاة راجفة الفؤاد قريبة العهد بأبرشية هامبشير .

كان من أولئك الذين تستطيع أن تتعرف على مكانتهم بين الناس فى سهولة ثم لا تغيب عنها هذه المكانة أبدا .

كان جميلا فيه جسارة ورقة ، وكان كريم اليد مرحا طيبا ، وقد راعتها منه شجاعة وعظمة ، ولكن الأمر الذى أخذت به أكثر من أى شىء آخر ، ووهب لها الشجاعة التى تبينت منها بعد ذلك ، أنه جعل أمر استخدامها تفضلا منه ، ومنة يقدمها اليها يجب الشكر عليها .

كان واضحا لها أنه غنى وأنه مبذر انى أقصى حد للتبذير يتخير العصرى من الملابس ، ويتخذ من العادات ما يكلف غاليا ، جميل القسمات ، ساحر المعاملة للنساء .

يخصص هذا المنزل الضخم لاقامته فى المدينة فهو ملىء بمعدات السفر ، وأدوات الصيد . وقد طلب اليها أن تقصد

فورا الى منزل العائلة الريفى بمقاطعة اسكس .

كان أخوه — وهو رجل عسكرى — قد توفى منذ سنتين فى الهند تاركا له ابنه وابنته . وهكذا ألقت أعجب المصادفات الى يديه بهذين الطفلين ، وهو الرجل البعيد كل البعد عن مثل هذه الخبرة ، والخالى كل الخلو من الصبر ، وهكذا أصبح هذان الطفلان عبئا ثقيلا ألقى على كتفيه . فسبب له متاعب ضخمة ، وسلسلة من المشاق . ولكنه كان يعطف على اليتيمين الفقيرين ويبذل لهما كل مايسعه أن يبذل .

يرسل بهما الى بيته الريفى ، فقد كان الريف أليق الأمكنة بهما ، فهو يقيهما هناك ويحيطهما منذ أرسلهما بخير الناس ، وكان يقوم هو بالخدمة عليهما دون الخدم ما استطاع الى ذلك من سبيل . ويشرف على راحتهما بنفسه ، فقد كان من الغريب انه لم يكن للأطفال من أقارب الا هو . وكانت أعماله الخاصة تشغل وقته جميعا .

وقد جعل من « بلاى » مقرا لهما حيث الأمان والهواء النقى . وعهد بهما الى المسز جروز وهى سيدة فاضلة كانت تعمل خادمة لأمه ، ولكن المسز جروز لم تكن تشرف عليهما الا حين يكونان فى الطابق الأسفل . فهى مديرة المنزل الآن ، وهى فى الوقت ذاته المشرفة على ابنة أخيه الصغيرة ، وقد

كانت مولعة بها تضفى عليها عاطفة الأمومة التى حرمتها . وقد كان ثمة كثرة من الخدم يعاونونها ، ولكن لا شك أن السلطة العليا ستلقى الى يد المربية الجديدة .

وكانت المسز جروز ترعى الطفل الصغير أيضا حين يعود الى المنزل فى أيام اجازته المدرسية . كان دون السن المؤهلة للدراسة .. ولكن لم يكن ثمة طريقة أخرى. وقد كانت العطلة وشيكة البدء .

وقد كانت ثمة مربية صـــغيرة للطفلين ولكنهما فقداها لسوء الحظ . وقد ظلت تعاملهما برقة كريمة حتى توفيت ؛ كانت ذات شخصية تدعو الى الاحترام البالغ . وقد تركت بموتها فراغا لا يمكن أن تملأه الا المدرسة للصغير ميلز .

وهكذا بذلت المسز جروز أقصى ما تستطيع من معاملة طيبة لفلورا . وكان هناك أيضا طباخ وخادمة وامرأة تختص بالألبان ، وحصان قمىء عجوز وسائس قديم ، وبستانى هرم ، وكان كل هؤلاء متشابهين ، وكان جميعهم محترما .

وهكذا قدم لنا دوجلاس صورته وحينئذ ألقى أحدهم سؤالا :

— وبماذا ماتت المربية الأولى ؟ تلك المربية التى كانت تدعو الى الاحترام البالغ ؟

فكان جواب صديقنا سريعا :

— سيبين هذا من القصة ، فلا داعى للتكهن .

— لقد توقعت منك هذا الجواب .

فقلت :

— يروق لى أن أعرف ما لاقته المربية الثانية من وظيفتها .

وأجاب دوجلاس عن تساؤلى :

— لاقت منها الخطير المميت .. لقد كان يروق لها أن تتعلم الحياة وقد تعامت ، وفى غد ستسمعون ما قد تعلمته ، لقد كانت فى خلال تعلمها تنظر الى مستقبل مظلم أمام عينيها . كانت صغيرة السن ، قليلة الخبرة ، مستوفزة الأعصاب . وكانت حيـاتها سلسلة من الأعمال الجـادة ، لا يندبها الا الصداقات القليلة حتى لكانت تحيط بها الوحدة العميقة الضخمة ، ولقد ترددت يومين بين اقبال واحجام ، ولكن المرتب الضخم الذى عرض عليها ، والتواضع الذى كانت عليه رجحا جانب القبول ، وفى مقابلتها الثانية للسيد طالعتها الموسيقى فقبلت الوظيفة .

وتوقف دوجلاس عند جملته هذه . مما جعلنى أتدخل لأبل شوق الجماعة المستمعين فقال دوجلاس :

— أما الناحية الأخلاقية فى القصة فهى ما قام به الشاب الرائع من انه استهوى الآنسة المربية ، فأذعنت لاستهوائه .

ثم وقف وذهب الى النار كما فعل فى الليلة السابقة ، ثم حرك خشب المدفأة ، ووقف لحظة وقد ولانا ظهره وقال :

لم تره الا مرتين .. نعم .. وهذا أجمل ما فى عاطفتها المشبوبة .

وقد أدهشنى دوجلاس بعض الشىء حينما استدار الى قائلا : « أجمل ما فى عاطفتها المشبوبة .. فان هناك فتيات أخريات ما كن ليذعن .. لقد صارحها بالشروط التى تتطلبها وظيفتها .. تلك الشروط التى أبت الفتيات الأخريات أن يقبلنها ، فقد كن خائفات ، وقد كان هذا منهن غباء عجيبا ، فان أكثر خوفهن كان يبتعثه الشرط الأساسى .

— ذلك الشرط الذى يقضى بأن .. ؟

— بأن تمتنع تماما عن مضايقته ، سواء كان ذلك بالتوسل والشكوى أم بالكتابة عن أى شىء ، فعليها وحدها أن تعالج كل ما يقوم فى وجهها ، وتتسلم كل ما تحتاج اليه من مال من محاميه ، وتقوم بالعبء وحدها وتترك السيد يتفرغ لخاصة شئونه . وقد وعدت هى أن تنفذ هذا الشرط

وقد ذكرت لى أنها حينما انتهت الى القبول الفرحان أمسك بيدها وشكرها على تضحيتها تلك فأحست أنها قد نالت بشكره كل مكافأة ترتجيها .

فسألت احدى السيدات الباقيات :

— ولكن أكان هذا هو مكافأتها الوحيدة ؟ .

— انها لم تره بعدها أبدا .

فقالت السيدة : « آه .. » .

وكانت هذه هى الكلمة الوحيـدة التى قيلت متصلة بالموضوع قبل أن يتركنا صاحبنا ثانية .

حتى كانت الليلة التالية ، فجلس دوجلاس فى ركن المدفأة فى أحسن كرسى وفتح غلافا باهتا « لألبوم » أحمر مذهب الحوافى ، ولقد استغرق الأمر أكثر من ليلة ، ولكن السيدة نفسها ألقت سؤالا فى أول مناسبة :

— ما عنوان قصتك ؟

— لا عنوان لقصتى :

فقلت :

— عندى لها عنوان .

ولكن دوجلاس بدأ يقرأ فى صفاء دقيق دون أن يعيرنى التفاتا . كان صوته جميلا جمال ذلك الخط الذى كتبت به قصته .

الفصل الأول

ما زلت أذكر البداية جميعاً ، تمر بذهنى كما لو كانت قطرات ماء تتساقط قطرة قطرة ، وتتدافع فى قلبى نبضات فيها الخطأ وفيها الصواب ، أشبه ما تكون بأرجوحة الطفلين المتقابلين .

فما ان بلغت المدينة اجابة لذلك الاستدعاء حتى التقيت بيومين بالغى السوء . فقد وجدت نفسى نهبا للتشكك ثانية ، وقد رسخ فى عميق احساسى أننى ارتكبت خطأ بمجيئى . وفى هذه الحالة النفسية قضيت ساعات طويلة من الأرجحة فى العربة المتمايلة التى أقلتنى الى الموقف الذى يجب أن أنتظر فيه ما ينقلنى الى المنزل .

كانت الراحة مهيأة لى بأمر من السيد ، ففى أصيل يوم من أيام شهر يونيه وجدت عربة قطعت بى الرحلة الطويلة فى سرعة وراحة ، وقد كانت الرحلة فى أصيل يوم جميل

تتهادى بنا العربة فى أفواف ريف تغمره حلاوة صيف يستقبلنى مرحبـا .

أخذ التشكك يزايلنى لأعود الى ثابت عزمى . ولكن ما ان أصبحنا فى الشارع الرئيسى حتى راحت نفسى تستمهلنى فلا أسرع فى الحكم . فكان هذا دليلا على أن التشكك قد تسرب الى البعيد من أعماق نفسى . لعلنى كنت أتوقع حزنا ولعلنى كنت أخشى ذلك الحزن ، وهكذا كان ما لاقيته مفاجأة جميلة لى . ما زلت أذكر تلك الواجهة السمحة العريضة التى طالعتنى من المنزل ، وقد تفتحت نوافذه ، وعلقت اليه الستائر مشرقة الألوان ، يطل منها خادمتان ، فألقى المنظر فى نفسى أجمـل الأثر . ما زلت أذكر الحشائش الخضراء تمتد فى الحديقة وتومض فيها الأزهار اليانعة ، ووقع عجلات العربات التى أركبها ، والأغصان العليا من الأشجار وقد تمايلت تحوم حواليها الطيور فى سمائها الذهبية ، كان للمشهد روعة تزداد كلما قارنته بمنزلى الهزيل .

ولقيتنى على الباب شخصية مهذبة ، وقد أمسكت طفلة صغيرة بيدها ، استقبلتنى بكل أدب وترحيب كما لو كنت سيدة أو زائرة كريمة . وكانت الفكرة التى كونتها من شارع هارلى عن المنزل فكرة محدودة لا تتعدى أننى سأرى منزلا

عاديا لرجل من السادة ، ولكننى رأيت أكثر مما توقعت .

ولم ألتق بجديد حتى اليوم التالى ، فقد قضيت الساعات التالية لوصولى فى التعرف على تلميذتى الصغيرة تلك الطفلة التى رافقت مس جروز فى استقبالى ، انها مخلوقة ساحرة ، حتى لقد اعتبرت نفسى موفورة الحظ لأننى سأعمل معها . انها أجمل طفلة رأيتها فى حياتى جمالا عجبت معه ان السيد لم يكثر من الحديث عنها .

قليلا ما نمت فى ليلتى هذه ، فقد كنت مضطربة ، وكان اضطرابى نفسه مبعثا لدهشتى . وما زلت أذكر ذلك الاحساس بالحرية التى كنت أعامل بها ، وتلك الحجرة الواسعة الفاخرة انها من أحسن غرف المنزل . وذلك الفراش الضخم الأنيق الذى أحسست بعظمته فى داخلى . وهاته الأبسطة المزدحمة بالتهاويل والنقوش ، والمرايا الهائلة التى استطعت أن أرى فيها صورتى كاملة من أخمص القدم الى قمة الرأس ، فكانت المرة الأولى التى أرى فيها نفسى كاملة . أذهلنى هذا جميعه ، كما أذهلنى ذلك السحر تبعثه الطفلة الرائعة التى سأعمل معها . ثم أذهلنى بعد ذلك كثير من الأشياء التى لقيتها فى دائرة عملى ، وقد بدأت هذه الأمور منذ اللحظة الأولى فقد كان لابد لى أن أوطد علاقة طيبة مع

المسز جروز ، وقد فكرت فى هذا الأمر وأنا فى طريقى بالعربة .

وقد جبهنى أول وهلة ذلك السرور الغامر الذى لقيتنى به مسز جروز ، كان سرورها مذهلا لى حتى لقد اضطررت أن أتباعد عنها بعض الشيء . ففى مدى نصف ساعة كاملة ظللت أتلقى فرحها بقدومى ، وكانت بدينة ناصعة السريرة ، سمحة النفس ، أنيقة الملبس ، بادية الصحة ، تحاول ما وسعها الجهد أن تخفى عن نفسها هذه الصفات ؛ وقد عجبت بعض الشيء ، ما الذى يدعوها الى اخفاء نفسها . وقد دعانى هذا العجب الى شيء من التأمل والشك أضيفا على نفسى بعض القلق .

ولكن الراحة التى لاقيتها نفت عن نفسى القلق ، كانت راحة تمازجها تلك الصورة المتألقة لفتاتى الصغيرة . فقد كانت رؤية جمالها الملائكى كافية وحدها أن تنفى عنى أى قلق .

فأنا أصحو مرات قبل الشروق أفكر فى هـذه الفتاة وأعجب من غرفتى التى أبيت فيها وتكتمل فى ذهنى صورة كاملة عن الحياة التى استقبلتنى والحيـاة التى تنتظرنى ، وأرقب من نافذتى الفجر الباكر ليـوم من أيام الصيف ،

وأستطلع بعض أجزاء المنزل التى يستطيع بصرى أن يمتد اليها من نافذة غرفتى وأتسمع فى هذه الاشراقة الأولى للفجر الى شقشقة الطيـــور ، وقد تتابعت أصواتها ثم اتحدت ، أو لعلنى استمعت الى هذه الأصوات فى داخلى ولم تستقبلها أذناى من الخارج ، ومرت لحظة خيل لى فيها أننى سمعت فيها صرخة بعيدة متهافتة تصدر عن طفل . ثم مرت لحظة أخرى خيل الىّ فيها أن ثمة أقداما خفيفة تتنقل فى الممشى الذى يمر بباب حجرتى ، ولم تكن هذه الخيالات مؤكدة تصل الى اليقين ولا هى أوهام يسهل التخلص منها . فهى ما تزال تساورنى ان خلت بى الظلمة أو فزعت الى الضياء . كانت معرفتى أننى سألاحظ فلورا وأعلمها ، تجعلنى أحس أننى مقدمة على حياة طيبة سعيدة .

كان الاتفاق قد تم بينى وبين المسز جروز على أن أكون فى المساء أكثر رعاية للطفلة ، كان سرير الطفلة الصغير الأبيض قد أعد فعلا فى جانب من غرفتى . وكنت قد انتويت أن تكون رعايتى لها كاملة صباح مساء . وكانت الطفلة قد ظلت هذه الفترة الأخيرة فى صحبة المسز جروز ولكننى مع هذا أحسست منذ اللحظة الأولى أنها ستحبنى ، أحسست بهذا رغم شعورى بالغربة ورغم خجلها الفطرى . ذلك الخجل الذى كان يضفى

عليها حلاوة عميقة لا تخلو من الجد . فهى صورة من تلك الصور التى كان يرسمها رفائيل للطفولة المقدسة . ذلك الخجل الذى لم يمنعها أن تكون صريحة جريئة فى صراحتها فهى تناقش ، وتتخذ لنفسها رأيا ، وتصمم عليه .

وكان هـذا مما جعلنى أميـل الى مسز جروز ، التى أحسست أن اعجابى بها يضفى عليها سرورا بالغا . وفى المساء جلست الى العشاء مع تلميذتى التى اتخذت كرسيا عاليا وارتدت مرولة على صدرها وأشرقت فى مواجهتى تحيط بنا أربعة شمعدانات طوال وقد وضع العيش واللبن على المائدة .

وفى أثناء وجود فلورا لم نستطع أنا والمسز جروز الا أن نتناول الحديث صامتين فى نظرات هائلة سمحة واشارات يحيط بها الغموض .

— وهل الطفل شبيه بها ؟ هل هو أيضا على هـذا الجمال ؟

قلت هذا وان كان لا يجوز لأحد أن يثير غرور طفل . وقالت المسز جروز : « بل هو أكثر جمالا ان كنت ترين هذه الطفلة جميلة » ثم وقفت وقد أمسكت بطبق فى يدها تنظر الى الطفلة التى تنقل نظراتها بيننا بعينين حالمتين سماويتين لا تحملان الا الصفاء .

فقلت :

— نعم انى أراها جميلة .

ثم قالت المسز جروز :

— سوف تؤخذين بالسيد الصغير .

فقلت :

— حسنا ، فما أظننى جئت الا لهذا ، لأكون مأخوذة دائما .

وما أزال أذكر نبضات قلبى تعنف وأنا أقول :

— اننى أخشى أن أكون هينة المأخذ ، فقد سبق أن أخذت فى لندن .

ولا يغيب عن ناظرى وجه المسز جروز العريض حين نفذت اليها هذه الجملة فهى تسأل :

— فى شارع هارلى ؟

— فى شارع هارلى .

— حسنا يا آنسة ، لست الأولى ، ولن تكونى الأخيرة .

وضحكت وأنا أقول :

— لا يسرنى أن أكون الأولى أو الأخيرة . فهمت أن تلميذى الآخر قادم غدا على أية حال .

— ليس غدا يا آنسة وانما فى يوم الجمعة ، وسيصل بالعربة التى أقلتك تحت رعاية الحارس .

فاقترحت أنه من الملائم أن أذهب لاستقباله وأصطحب أخته الصغيرة ونحتفى به فأدخل عليه السرور وأشعره بروح الصداقة بيننا . وقد مس هذا الاقتراح الأعماق من قلب المسز جروز حتى لقد رأيت فى سرورها بعض مبالغة استرحت اليها ، فقد كنت أدرى انها — والحمـد لله — مبالغة غير متكلفة ، فقد كنا على وفاق فى كل مشكلة تعرض لنا ، لقد كانت سعيدة أننى بجانبها .

كانت أحاسيسى فى اليوم التالى بعيدة كل البعد عن أن تكون رد فعل لوصولى الى هذا المكان ، فقد كان يغلب على شعورى بعض الضيق .

وحين أحطت بالطفلين وأنعمت فيهما النظر أصبحا جزءا من حياتى الجديدة . كانا ذوى أفق واسع ومادة غزيرة الى مدى لم أكن أتوقعه ، حتى لقد تولانى بعض الخوف ، ومسنى شىء من الزهو وأنا أستمع اليها .

ولا شك أن الدروس تعرضت لبعض التأخير من جراء هذا الاضطراب ، واعتقدت ان واجبى الأول هو أن أكسب الطفلة فأجعلها تتعرفنى بحيث أتخذ الى ذلك أكثر الطرق

كياسة .. فقضيت اليوم معها خارج المنزل ، وحتى أرضيها ألقيت اليها قيادى . فجعلتها هى التى ترينى خفايا المكان ، فراحت تقودنى اليها ، خطوة خطوة ومكانا مكانا ، وخافية بعد خافية . وتحيط هذا جميعا بحديث طفل شائق حتى لقد أصبحنا صديقين حميمين فى مدى نصف ساعة .

وقد أذهلنى ونحن فى رحلتنا القصيرة هـذه أنها — وهى الطفلة الصغيرة — على ثقة تامة بنفسها ذات جرأة عجيبة على الطريق ، فهى تقتحم الغرف الخالية والدهاليز المعتمة والسلالم اللولبية التى كنت أتريث قبل أن أخطو اليها وهى تعتلى القمة من قبة قديمة ما ان وقفت عليها أنا حتى أوشكت أن أغيب عن الوعى .

كانت فى حديثها المتدفق حريصة على أن تخبرنى بما لا أعلم أكثر من حرصها على الاستفهام منى عما لا تعلم وكان صوتها الناغم كموسيقى الصباح يسبقنى دائما ويقودنى الى الطريق .

اننى لم أر « بلاى » منـذ تركتها ، وانى أجرؤ على القول أن عينى وقد عبرتا السنين وأدمنتا الرؤية خليقتان أن تريا هذه البلدة منكمشة عما كانت حين ذاك . أما مرشدتى ذات الشعر الذهبى والفستان الأزرق التى كانت تتقدمنى

متراقصة عند خفايا الطريق متمايلة عند الممرات ، أما هذا المنظر فهو يتراءى لى دائما وكأنما هو قلعة من الهـوى تعمرها مخلوقات من الورود . كان ذلك المكان يبدو وكأنه قد اختلس كل ألوانه من قصص الجنة ثم أضفى عليها مزيدا من البهجة .

أترى كان ذلك المكان نفسه قصة اقتطفت منها جرعة وخلست حلما ؟ لا ، لقد كان بيتا كبيرا عتيقا قبيحا ، وان كان مريحا .

كان فيه الكثير من معالم الأبنية القديمة ، أزيل عنه نصف ما كان يحتويه من أثاث وبقى النصف الآخر ، ولم يكن يستغل من حجراته الباقية الا نصفها ، حتى لقد كان يخيل الى أننا نحن سكان البيت ركاب سفينة لا يهدأ لها مستقر على ثبج الأمواج ، وكنت أتصور نفسى ممسكة بالدفة .

الفصل الثانى

أصبحت الحياة فى البيت مألوفة لى . وبعد يومين من اقامتى ركبت عربة مع فلورا لنستقبل سيدا صغيرا ، الا أن حادثا يسيرا وقع فى الليلة التالية لمجيئه . كان له بعض الأثر فى أعماق نفسى ، فقد كان اليوم الأول فى مجمله يوم استقرارى كما توقعت أن يكون ، ولكن كان لابد لى أن أتبين الأمور على حقيقتها العادية فى الأيام الأولى لاقامتى . كان ذلك الحادث حين جاءت حقيبة البريد فى ذلك المساء تحمل الى خطابا ، كان الخطاب يحوى كلمات قلائل مكتوبة بيد السيد الكبير ، وكان يحوى بداخله خطابا آخر عليه عنوان السيد نفسه ، وكان ذلك الخطاب الأخير مقفلا لم يفض غلافه : « هذا — فيما أعتقد — من ناظر المدرسة . وناظر المدرسة رجل لا يحتمل . أرجوك أن تقرئيه ، واتخذى منه الموقف الذى ترينه ، ولكن عليك ألا تجيبيه . لا تجيبى بكلمة ، أما أنا فلا شأن لى بالأمر جميعه ! » وفضضت الظرف بجهد كبير

لدرجة أنه استغرق منى وقتا طويلا ، وصعدت بالرسالة أخيرا الى غرفتى ورحت أغزو سطورها قبيل ذهابى الى الفراش . كان يحسن بى أن أدعها تنتظر الى الصباح ، فقد أتاحت لى ليلة أخرى من القلق . وأصبحت فى اليوم التالى وقد غمرنى الشقاء ولا أجد من أسأله النصيحة . وتمكن الشقاء منى حتى لقد عزمت رأيى آخر الأمر أن أفتح قلبى للمسز جروز .

— ما معنى هذا ؟ ان الطفل قد طرد من المدرسة ؟!

ونظرت الىّ المسز جروز نظرة أدركت معناها من فورى ثم بدا عليها بوضوح أنها تحاول أن تسترد نظرتها التى أطلّت من عينها وقالت :

ولكن ألم يطرد جميع الأطفال ؟ فقلت :

لا وانما أرسلوا الى منازلهم لقضاء العطلة . أما ميلز فما أظنه يعود الى المدرسة أبدا .

وفى دراية بالموقف احمر وجه المسز جروز خجلا ! « ألا يقبلونه ثانية ؟ » فقلت :

« انهم يرفضونه » .

وحينئـذ رفعت الىّ عينيها التى كانت تحولهما عنى . فرأيتهما مليئتين بالدموع السخينة :

« وماذا أفعل ؟ » .

وترددت قليلا ثم وجدت أن خير وسيلة لى هى أن أعطيها الخطاب ولكنها أرسلت يديها خلف ظهرها حتى لا تتسلم الخطاب ، ثم هزت رأسها فى حزن : « لا يمكننى أن أطلع على مثل هذه الأمور يا آنسة » .. لقد كانت من أنتصحها جاهلة بالقراءة فأحسست أنى أخطأت ، وحاولت أن أدارى خطئى قدر الجهد ، ففتحت خطابى ثانية لأقرأه عليها ، ولكننى ارتبكت فعدت . وطويته ووضعته فى جيبى « أهو حقا سىء ؟»

وكانت الدموع ما تزال عالقة بعينيها وهى تقول : « هل يقول السيد انه سىء ؟ »

فقلت : « ان الخطاب خال من التفاصيل . وانما يفيد مجمله انهم لن يبقوا عليه فى المدرسة . وليس لهذا الا معنى واحد » :

« وأى معنى هذا ؟ »

ولأجعل الأمور واضحة بعض الشىء أمام عقلها الواعى لما أقول رحت أتابع الحديث :

« يقولون ان فى وجوده اضرارا بالآخرين » .

وحينئذ استدارت عنى المسز جروز فى بساطة ، ثم ثارت فجأة « سيدى ميلز .. فى وجوده اضرار بالآخرين ؟! » .

كانت نهبا لموجة من الثقة العميقة ولكننى — برغم جهلى بالغلام — اعترانى الخوف مما قيل عنه . ورأيت أن أنظر الى الأمر من ناحيته الساخرة حتى أتمكن من لقاء الفتى لقاء طيبا ، فقلت فى بعض تهكم مكملة حديث المسز جروز : « لعله مضر برفاقه الصغار الأبرياء » .

وصاحت المسز جروز : « انه لأمر مزعج أن يقال عنه مثل هذه الأقوال القاسية فهو لم يكد يبلغ العاشرة من عمره ».

فقلت : « نعم .. نعم .. انه أمر يصعب تصديقه » :

فبدا عليها الارتباك اننى أنا من سأقوم بشأن الأطفال وقالت : « اعرفيه أولا يا آنسة ثم انظرى أتستطيعين تصديق مثل هذه الخرافات » فأحسست شوقا جديدا لرؤيته ، وكان ذلك الشوق بداية حب استطلاع ما زال يكبر فى نفسى الساعات التالية حتى أوشك أن يكون مرضا .

وكان الفضل يرجع الى المسز جروز فيما لحق بى ، فقد راحت تؤكد ثانية : « أتصدقين مثل هذا عن السيدة الصغيرة باركها الله .. انظرى اليها » .

واستدرت فرأيتها عند الباب وقد كنت تركتها منذ عشر دقائق بغرفة الدراسة وبيدها ورقة بيضاء وقلم . كانت واقفة

عند الباب محاولة أن تبين فى طريقتها الطفلة أنها غير مقبلة على هذه الواجبات البغيضة ، فكانت تنظر الى فى طفولة تشع بالبراءة ، صادرة عن هذه العاطفة الحبيبة التى أبدتها نحوى ، والتى جعلتها تشعر بانها يجب أن تتبعنى . ولم أكن أحتاج الى أكثر من هذا لأشعر بمقدار المقارنة العظيمة التى أجرتها مسز جروز بين الطفلة وأخيها .

أحطت تلميذتى بذراعى وأغرقتها بالقبلات ، وراحت هى تشهق بالبكاء .

وصرفت بقية يومى أبحث عن فرصة أخرى أتقرب فيها من المسز جروز ، وخاصة أنه خيل الى عند المساء انها بدأت تتجنبنى . ولكننى لحقت بها عند السلم فنزلناه سويا وعند نهايته اعترضت سبيلها وأمسكت بذراعها وقلت : « اننى أخذت كلامك عند الظهيرة من أنك لم تعرفى الغلام سيئا قضية مسلمة » .

فألقت برأسها الى الوراء واتضحت حينئذ عن سيدة تتخذ موقفا صادقا أمينا ثم قالت « لم أقل أبـدا اننى لم أعرفه سيئا » .

ومرة أخرى عاودنى الضيق وقلت : « اذن فقد عرفت فيه

السوء؟!»فقالت : «نعم يا آنسة أعرفه والحمد لله » وقبلت هذا الأمر بعد تفكير ثم قلت : « تعنين أنه لم يكن طفلا .. ». فقالت : «لم يكن كذلك بالنسبة لى » فازددت منها اقترابا وقلت : «أنت تحبين أن يكونا على بعض الشقاوة فى لعبهما ؟» وقبل أن تجيب قلت « وانى أحب أن يكونا كذلك . » فأفصحت بذلك عن رأيى بوضوح فقالت «ولكن على ألا ينزلا الى الحضيض . » فقالت : « الحضيض ؟ » وتركتها كلمتى الكبيرة فى حيرة فرحت أشرحها قائلة : « نعم على ألا يتلوثا » فحملقت فى وقد فهمت المعنى الذى أقصد اليه ولكنها انفجرت عن ضحكة عجيبة ثم قالت : « أتخشين أن يمس سمعتك ؟ » وقد ألقت سؤالها فى مرح جرىء جعلنى أجاريها فى مرحها . ولكن فى اليوم التالى حين اقترب موعـد ركوبنا سألتها : « كيف كانت المربية التى أخذت مكانها ؟ » .

فقالت : «المربية الأخيرة ؟... لقد كانت هى أيضا صغيرة وجميلة ، أقرب ما تكون الى جمالك وصباك يا آنسة » فتريثت قليلا وألقيت بجملتى « أرجو أن يكون جمالها وصباها قد اعاناها ، يبدو لى انه يجب أن نكون جميلات صغيرات!!؟» ووافقت المسز جروز قائلة « انه لكذلك ، فانه يحب كل انسان ان يكون كذلك ! » واستدركت قائلة « أقصد ان

تلك هى أخلاقه .. أخلاق السيد . » صدمت بقولها وقلت : « ولكن عمن كنت تتحدثين أول الأمر ؟ » وبدا عليها الذهول وعرتها الحمرة وقالت : « عنه بالطبع .. لماذا ؟ » فقلت : « عن السيد ؟ » فقالت : « فعمن ان لم يكن عنه ؟ » .

كان من الواضح أنها لا تقصد غيره ، وفى اللحظة التالية بدأت أحس أنها لم تقل أكثر مما كانت تريد أن تقول ، ولكننى أنا أيضا لم أسألها الا عمـــا أردت أن أعرف « هل لاحظت المربية السابقة أى شىء على الطفل ؟ » فقالت « لا .. فهى لم تخبرنى بشىء » اعترانى شك ولكننى تغلبت عليه وسألت « أكانت تعتنى بعملها » فبدا على مسز جروز أنها تحاول أن تكون ذات ضمير وهى تقول « نعم ، ببعض عملها » فقلت « ولكنها لم تكن تعتنى بكل أعمالها » فقالت « حسنا يا آنسة ، لقد ذهبت فلم يعد هنـــاك ما يدعونى الى رواية القصص . » فأسرعت قائلة : «انى أقدر شعورك » ثم استطردت فى حديثى قائلة « هل ماتت هنا ؟ » فقالت « لا ، لقد بارحتنا » .

لم أتبين ماينطوى عليه هذا الاقتضاب الذى جرت عليه أجوبة المسز جروز فقـــد كان يروعنى بغموضـــه فسألتها « بارحتكم لتموت ؟ » فنظرت المسز جروز من الشباك ولكننى أحسست أن لى الحق أن أعلم ، ماذا يقع للشباب فى «بلاى»

فقلت : «أتعنين انها حملت من هنا مريضة الى بيتها ؟ »فقالت : « انها لم تحمل مريضة أو أن هذا على الأقل ما كان يبدو لى منها فى هذا المنزل .. لقد تركتنا فى نهاية العام وقالت انها ذاهبة الى بيتها فى اجازة قصيرة وبمجرد أن وصلت الى بيتها أحست بالراحة . وكانت لدينا اذاك فتاة صغيرة تعمل مساعدة لها . وقد بقيت هذه الفتاة وكانت طيبة ماهرة فى عملها ، وقد تولت شأن الأطفال خلال هذه الاجازة . ولكن المربية الشابة لم تعد أبدا ، وفى نفس الوقت الذى كنت أنتظرها فيه سمعت من السيد أنها ماتت » .

قلبت هذا الحديث على أوجهه ثم تساءلت : « ولكن بماذا مرضت ؟ » فقالت : « لم يخبرنى أبدا ، فلتأذنى لى يا آنسة ، لا بد أن أذهب الى عملى » .

الفصل الثالث

ثم أدارت ظهرها لى ، ولكنى — لحسن الحظ — كنت أكنّ لها من التقدير ما يذود عنها غضبى من تصرفها . وتقابلنا بعد ذلك حين أحضرت الصغير ميلز ، فكنا فى لقائنا أكثر تقاربا مما كنا فى أى وقت ، وهكذا تبينت أنه من الغفلة أن أخطر فكرة الغضب على ذهنى ، وأنه من الوحشية أن أبين هذا الغضب ، وبدا الطفل أمامى بعيدا عن أن تمسه الشبهة .

كنت قد جئت متأخرة فلم أره وهو ينزل من العربة التى أقلته الى الخان الذى كنت أنتظره فيه ولكن ما ان شهدته وهو واقف بباب الخان ينتظرنى حتى أحسست اننى رأيته ظهرا لبطن كانت تحيط به زهوة النضارة ، ويتأرج المكان حوله بعبير البراءة ، باعثا فى نفسى الجو الذى بعثته أخته فى نفسى أول لحظة رأيتها فيها . كان جميلا بصورة لا يمكن تصديقها . وان كانت المسز جروز قد ذكرت جمـاله لى ، وتلاشى من حولى كل شىء الا تلك الرقة يشيعها وجوده فى

المكان ، حتى لقد أحسست فى عميق قلبى ان ثمة روحا من السماء تحيط بهذا الغلام ، روح لم يحظ بها غلام آخـر غيره .. كان الجو الرائع الذى يحيط به يوحى اليك انه لا يعرف شيئا فى الحياة غير الحب ، ذلك الحب الطاهر البعيد عن كل معنى يشين .. حب كله براءة .

ظللت حـائرة طوال المسـافة التى قطعناها فى طريقنا الى بلاى . ولكننى مع ذلك لم أغضب من ذلك الخطاب المريع الذى أقفلت عليه درجى ، وما كدت أختلس خلوة بالمسز جروز حتى أعلنت اليها شناعة ذلك الخطاب وسرعان ما أدركت مقصـدى فقالت : « تقصدين ما فيه من تهمة قاسية ؟ » فقلت : « انها تهمة لا تصمد لحظة أمام الاختبار ، انظرى اليها يا سيدتى العزيزة ! » .

ابتسمت المسز جـروز أننى كشفت سحره ثم قالت : « أؤكد لك يا آنسة أننى لا أصنع شيئا سوى أن أظل رانية اليه ، فما رأيك ؟ » .

فقلت : « رأيى فى الخطاب ؟ » فقالت : « أما أنا فقد اتخذت فى ذلك رأيا » فقلت : « أما تفضـين لى بشىء » فقالت : « فما رأيك فى عمه ؟ » فقلت : « انى أقف منه على حيدة ، فلا رأى لى » فقالت : « فماذا عن الغلام نفسه ؟ »

فقلت : « لقد عاملته بغاية الرقة » . فرفعت ذيل مرولتها ومسحت به فمها فاستطردت : « انى سأقف الى جانبك ونتبين جلية الأمر معا » .

ورحت أردد هذه الجملة ثم مددت لها يدى ليكون ذلك بيننا عهدا ، فأبقت على يدى لحظة ثم رفعت مرولتها مرة أخرى وعلقتها بيدها الأخرى ثم قالت : « أيضايقك يا سيدتى أن أستغل هذه الحرية التى أتحتها لى؟ » فقلت : «فى تقبيلى.. مطلقا » ثم احتويت المخلوقة الطيبة فى ذراعى ، وبعد أن تبادلنا القبل كالأخوات أحسست اننى كسبت قوة وثباتا .

لم يكن العهد بيننا ابن لحظة وانما كان للفترة القادمة من الزمان ، وقد كانت فترة مليئة بالأحداث ، حتى اننى اذا ما ذكرتها بعد ذلك ذكرت معها مقدار ما أفتقر اليه اليوم من لباقة حتى أستطيع أن أجلو أحداث تلك الفترة . ولكن الأمر الذى ما أزال أنظر اليه دهشة هو قبولى لهذا الموقف . كنت قد عاهدت صاحبتى على أن تتبين الأمر سويا ، وكنت اذ ذاك واقعة تحت تأثير عجيب .. أن الأمور المعقدة حولنا سوف تجرى الى يسر ازاء مجهودنا . ولكن موجة عاتية من الاشفاق والتغافل ما لبثت أن تقاذفتنى . وكنت من الجهل والحيرة وربما من الغرور بحيث حسبت أنه من السهولة

بمكان أن تتصل أسبابى بغلام كل ثقافته فى الحياة متركزة فى نقطة البداية .

لا أستطيع اليوم أن أتذكر كيف صغت اقتراحى الذى أنهيت به أيام عطلته وبدأت أيام دراسته .

وكانت الدروس التى ألقيتها اليه فى ذلك الصيف البديع والتى أجمعنا على انه يجب أن يتلقاها ، كانت — فى الأسابيع الأولى — دروسا أفدت منها أنا أكثر مما أفاد هو . لا شك اننى تعلمت شيئا منذ بادىء الأمر ، تعلمت شيئا لم أكن تعلمته فى حياتى الصغيرة اذ ذاك ، تعلمت أن أتسلى ، بل وتعلمت أن أسلى غيرى ، وتعلمت ألا أفكر فى الغد ، وكانت المرة الأولى التى أحس فيها لذة الانطلاق مع الهواء والحرية ، والى موسيقى الصيف وأغزو أسرار الطبيعة .

وقد كان ثمة شىء .. شىء حلو .. كان فخا استولى على خيالى جميعا وعلى احساسى بل ولعله استولى أيضا على كبريائى .. لم يكن مرسوما ولكنه كان عميقا .. كنت مضطربة بكل جارحة من جوارحى ، وخير طريقة لتصوير الأمر جميعه أن أقول اننى لم أكن منتبهة . ما أقل المتاعب التى سببتها لى ، فقد كان على رقة بالغة . لقد تعودت أن أتأمل ولكن تأملاتى لم تكن مترابطة . كنت أفكر كيف

سيتناولهم المستقبل الخشن ، فكل مستقبل خشن ! وانى لأخشى أن يسحق الطفلين . كانا يتمتعان بنضرة الصحة والسعادة . وكنت أحس أننى انما أعمل مع قوم ينتمون الى الأمراء فى دمائهم ، فكل شىء يتصل بهم يجب أن يكون محل الرعاية البالغة . الا أننى بعد مرور السنين لم أبق فى ذهنى الا على صورة واحدة أشبه بالخيال وهى تلك الحديقة وقد امتدت الى المتنزه فأصبحتا أشبه ما يكونان بحدائق الملوك .

ولعل ذلك العمل الجديد الذى أدخل الى حياتى أكسب حياتى السابقة لونا من السكون . ذلك السكون الذى تتجمع فيه الأحداث أو تغتصب فكان التغيير الذى طرأ كقفزة الوحش .

كانت الأيام طويلة فى الأسابيع الأولى ، وكانا غالبا يتيحان لى فى كياسة أن أخلو لنفسى ساعة أسميها ساعتى .. وكانت تلك الساعة تتاح لى عندما يحين موعد الشاى أو موعد النوم . فكنت أخلو الى نفسى فترة وجيزة قبل النوم ، ومهما يبلغ حبى للطفلين فقد كان حبى لهذه الساعة من اليوم أعظم وكان حبى لها يزداد كلما خفت الضياء ، ولعله يجدر بى أن أقول انه كان يزداد عندما يبارحنا اليوم فى تلكؤ ، وتنبعث الأصوات الأخيرة للطيور الباقية على الأشجار ، وقد أشربت

السماء لون الورد ، كنت أدور فى الحديقة ينتابنى شعور بأننى مالكة لما حولى ، وكان هذا الشعور يسلينى ويرضى غرورى ، وكان جماله وروعته خليقين بأن يسكبا فى نفسى هذا الشعور. وكان جميلا أن أحس اذ ذاك أنى هادئة تحيط بى الطمأنينة . كنت أتأمل فى هدوء مقدار السعادة التى أستطيع أن أبعثها فى نفس شخص أخذت به من قبل وان كان — بطبيعة الحال — لم يفكر فى الحصول على هذه السعادة . ان ما فعلته ، كان فى نفسه أمنية ، وكان فى لسانه سؤالا صريحا وكان فى مقدورى أن أهبه له ثم اتضح عن سعادة ما توقعتها وأستطيع القول اننى تخيلت نفسى امرأة صغيرة جديرة بالعناية ؛ واسترحت لايمانى بأن الأمر سيصبح واضحا للناس وقد كنت فى حاجة الى هذه العناية حتى أهيىء مكانا لهذه الخوالج التى تواكبت بشائرها .

وقع ذاك خلال احدى هذه الساعات التى أخلو فيها الى نفسى من بعد الظهيرة . وكان الأطفال منطلقين عنى بعيدا ، وخرجت لنزهتى وانتابتنى احدى هذه الأفكار التى تعودت أن تلازم تجوالى ، كانت فكرة ساحرة أشبه ما تكون بقصة قصيرة يبتعثها لقاء مفاجىء لشخص فى الطريق . كأن يبدو شخص ما هناك عند حنية الممشى ، ثم يبتسم مرحبا ،

وما كنت أرجو أكثر من ذلك ، ما كنت أرجو الا ما يعرفه هو . وكان سبيلى الوحيد للتأكد من انه يعرف ما أريد ، أن أرى هذا الذى أريد على وجهه الجميل الذى يشع بالطيبة . كان هذا تماما هو الماثل فى ذهنى .

وفى أول فرصة واتتنى عند نهاية يوم طويل من أيام يونيه توقفت عند خروجى من احدى المزارع ، وواجهت منظر البيت.

ماذا أمسك بى فى هذا المكان ، وفى هزة عنيفة أعظم من أى هزة تولتنى فى رؤاى ، تحققت أحلامى . لقد كان واقفا هناك ؟ ولكنه كان عاليا هناك خلف الحشائش وفى نفس المكان من القبة الذى قادتنى اليه فلورا فى يومى الأول . وكانت هذه القبة احـدى اثنتين .. وكانت مربعة على جانب من الضخامة فى البناء ، يبدو عليها انها بنيت لغرض خاص فقـد رأيت ثمة فارقا بينها وبين الأخرى القديمة ، كانتا تتخذان مكانيهما على الجانبين من المنزل ، ولعلهما كانتا من الناحية الهندسية خاليتين من الفن ، ولكن قلة استعمالهما والتطامن من الارتفاع فيهما يخففان من تخلى الفن عنهما . كانتا مقامتين على نمط العصر الرومانى فى البنـاء وكنت أعجب بهما ، وأحيطهما بالخيالات ، ويروعنى منظرهما وهما تندلعان خلال الظلام تحيط بهما العظمة من طريقة بنائهما .. وهكذا كانت

الرؤى التى أحيطهما بها لا تختلف كثيرا عن الحقيقة . كان منظرهما يثير فىّ انفعالين مختلفين عند الأصيل ، ينبعثان عن المفاجأة التى طالعتنى بظهوره . وكانت المفاجأة الثانية توضيحا للأولى ؛ فقد كان الرجل الذى التقت به عيناى غير ذاك الذى توقعت رؤيته قبل . وحينئذ اختلطت الرؤى فى عينى بالواقع ، حتى اننى — بعد هذه السنوات — لا أذكر ما كان عليه شعورى فان رجلا مجهولا فى مكان منفرد لابد أن يرسل الخوف فى نفس شابة مثلى ، ربيت فى عزلة . كان الشبح الذى طالعنى صورة لأى انسان يمكن أن نلقاه ، فأنا لم أره فى شارع هارلى ، بل انى لم أره فى أى مكان من قبل . والمكان الذى أنا به هو أغرب مكان فى العالم ، فقد أصبح فى هذه اللحظة بما يحيط به من مظهر مكانا منعزلا ، أو هو منعزل بالنسبة لى على الأقل . وهكذا أستطيع أن أبيح لنفسى بعض الحرية . وطالما عاودتنى مشاعر تلك اللحظة جميعا ، خيل لى أن جميع ما يحيط بنا قد غشاه الموت . وأستطيع الآن وأنا أكتب أن أتسمع ذلك السكون المطبق الذى ألقيت فيه أصوات الغروب . وأكاد أحس ثانيا وأنا أكتب الآن ذلك السكون الكامل الذى أغرق فيه المساء . وقد خلت السماء المذهبة من أصوات الطيور ، واستراحت تلك السويعة

الحبيبة الى فترة من الهدوء الشامل . ولكن لم يكن ثمة تغيير آخر فى الطبيعة الا تلك الفجاءات التى كانت تعترى الموقف من حين لآخر . كان الذهب ما يزال منثورا فى السماء وكان النقاء ما يزال شائعا فى الهواء ؛ وكان الرجل الذى يطالعنى من وراء الأبنية يلوح محدد القسمات كصورة يحيط بها اطارها . أو هكذا خيل الى فى ومضة سريعة ، ثم أخذ منظره يوحى الى ببعض أشخاص ممن أعرفهم ، ثم أعود فأخشى ألا يكون واحدا من هؤلاء الذين أنفر منهم . ثم رحت أتساءل عمن يمكن أن يكون ان لم يكن واحدا من هؤلاء . ولكن ما لبثت هذه الصورة ان راحت تتجسم بصورة أحسستها ما أزال عاجزة عن التعبير عنها .

بل اننى حتى لا أستطيع أن أذكر الى متى لازمتنى هذه الأحاسيس . رحت أستعرض احساساتى واحدا بعد الآخر ، فماوجدت واحدا منها يختلف عن الآخر . فقد أصبح واضحا ان شخصا أجهله كل الجهل سيكون فى البيت . وكانت وظيفتى كمربية تحتم علىّ ألا أجهل أحدا ممن فى المنزل، كما تحتم علىّ ألا يقيم من أجهله فى المنزل . وقد لازمنى هذا الاحساس حينما حاول هذا الزائر أن يتمعن فى وأنا أفكر فى سبب وجوده فقد كان يتيح لنفسه تحررا فى تصرفاته بدا فى عدم وضعه قبعة على رأسه .

كانت المسافة بيننا لا تتيح لنا أن نتنادى . ولكن مرت بنا لحظة أحس كل منا أنه يتحدى الآخر . وكانت تلك اللحظة نتيجة طبيعية لذلك التحديق الطويل الذى شزر كل منـا صاحبه به . كان واقفا فى الأركان البعيدة عن المنزل .. وكان معتدل القامة يضع كلتا يديه على سور المنزل ، كنت أراه واضحا كما أرى حروف الصفحة التى أكتبها . وكأنما أراد أن يغير المنظر فهو يتحرك بعـد دقيقة مغيرا مكانه ، وقد عبرنى متفرسا فى وجهى متخذا سمته الى الركن المقابل .. نعم كان يخيل الى أنه طوال هذا الانتقال لم يرفع عينيه عنى ، وأكاد أرى حتى هذه اللحظة احدى يديه وهى تجوس خلال ملابسه . فوقف عند الركن الآخر ولكنه لم يطل . وقد ظل حتى فى استدارته ينظر الى فى امعان . لقد استدار .. هذا كل ما أعرفه .

الفصل الرابع

لم أطق الانتظار أكثر من ذلك فقد كنت مهتزة الى الأعماق. أكان ثمة سر فى بلاى ، أم أن هناك سرا غامضا يحيط بالقصر؟ أم تراها كانت صلة خفيـة يواريها عنا حرص القـوم ؟ لا أستطيع أن أذكر كم قطعت من الساعات مفكرة فى هـذه الأمور ، كما لا أذكـر كم من الوقت قطعت وأنا باقية فى موقفى حائرة فزعة من اصطدامى بذلك الغريب ، ولكنى أذكر حين عدت الى داخل المنزل أن الظلام كان يخيم عليه تماما. ودفعنى الاضطراب أن أحوم فى أرجاء البيت ، فاقتضانى ذلك أن أمشى ثلاثة أميال . وقد غلبنى التأثر حين تبينت أن هذه البوادر من الخوف لم تكن الا رعشات برد أحاط بى . وكان أغرب ما فى مشاعرى هذه أننى أصبحت فى البهـو حيث التقيت بمسز جروز . وفى المنزل ، عاودتنى تلك الصورة على ذلك المكان المتسع ذى الأعمدة وقد التمع أبيضه فى الضياء . واتضحت صوره فى أبسطته الحمراء ، وطالعتنى

تلك النظرة الحلوة من الذهول التى علت المسز جروز التى جابهتنى بأنها قد اشتاقت الى . لقد طالعتنى نظرتها بمجرد التقائى بها ، فأزاحت عنى عاطفتها الصافية ذلك الاضطراب الذى رزحت تحته ، كانت جاهلة تمام الجهل بما كنت سأرويه لها . لم أكن أتوقع أن وجهها الهـادىء سيعجز عن تهدئة ثائرى . رحت أقيم الموازين لأهمية ما رأيته مترددة بين ذكره أو الصمت عليه وأكاد لا أجد فى التاريخ حقيقة مثل هذه التى تعرضت لها . فقد كان اشفاقى على المسز جروز أن أروعها بأنبائى هو بداية خوفى الحقيقى .

فى البهو الجميل وأنا واقفة تحت عينيها أصبحت — لسبب أعجز عن التعبير عنه — نهب ثورة داخلية . وألقيت اليها اعتذارى غامضا وقد علق بذهنى جمال الليل وقد رطبت أجواؤه فنديت أقدامى الحافية .

وفى هذه الحجرة كان ثمة عمل غريب لى ، فقد كنت أختلس فى كل يوم بضع ساعات أو بضع لحظات أخلو فيها الى نفسى فى حجرة مقفلة وأفكر . الا أننى كنت أكثر اضطرابا مما أحتمل ، وكان أخشى ما أخشاه أن يلازمنى هذا الاضطراب لقد كانت الحقيقة التى أريد البحث عنها بسيطة واضحة المعالم فى ذهنى ، فقد كانت تخيل لى أن هذا الغريب الزائر — مهما

يكن أمره — قد يغدو مقربا الىّ ، ولكننى توقعت أننى باضطرابى هذا سأنتهى الى تعقيد يعترى شئون منزلى ، وقد تبينت هذا دون أن ألجأ الى استفسارات . خيل الى أن الصدمة قد أرهقت حسى .

وبعد ثلاثة أيام داومت فى أثنائها على دقة الملاحظة أصبحت على يقين أننى لن أصبح ألعوبة فى أيدى الخدم ، كما أننى لن أصبح هدفا لألاعيبهم . فقد كانوا يجهلون عنى كل شىء . الا شيئا واحدا ، فقد أباح أحدهم لنفسه حرية بشعة . وذلك الذى كنت أردده لنفسى حين أغوص وحيدة فى غرفتى ، لقد كنا جميعا هدفا لتدخل أجنبى وقع من غريب لا يراعى ما يقول أو مايفعل . وقد كان ذلك شيئا عجيبا أن يقع فى البيوت القديمة فقد اتخذ طريقه الى المنزل خلسة ، وتمتع بالمرائى التى استشرفها ، ثم رجع خلسة كما جاء . أما نظرته تلك القاسية الجريئة فلم تكن الا بعضا من عدم الكياسة الذى يتمتع به . والشىء الجميل فى كل ذلك أننا لن نراه بعد ذلك أبدا .

اننى أعترف أن ذلك لم يكن شيئا فى غاية الجمال ، وقد كنت خليقة بأن أطلق عليه هذا الحكم . لقد كان أجمل شىء عندى هو ذلك العمل الذى أقوم به والذى يجعلنى أحيا

مع ميلز وفلورا . فلم يكن أمتع عندى من أن أندفع الى عملى فاذا أنا مندفعة بعيدا عن كل متاعبى . وكان تعلقى بالمبلغ الزهيد الذى أتقاضـــاه مبعث سرور كبير فى نفسى . وقد أدى بى ذلك الى اعجابى بأن مخاوفى لم تكن صادرة الا عن تكبرى ، كنت قد بدأت عملى دون أن أجد فيه متعة ثم بدا لى أنه لا يخلو تماما من هذه المتعة . وكيف يخلو من المتعة وهو يطالعنى فى كل يوم بلون جديد من الجمال ؟

كان كل الجمال متمثلا فى عملى كمربية ، وفى شاعرية الحجرة المخصصة للأطفال .. ولا أعنى بذلك أننا لم ندرس فى تلك الغرفة الا قصص الخيال وقصائد الشعر وانما أعنى أننى كنت ألتـــذ بما يوحى الى به صـــديقاى الصغيران . كيف استطيع أن أصف ذلك الا أن أقول اننى بدلا من أن أتعود عليهما — وهذا أمر بديع لمربية — جعلت منهما أخوين لى فى الانسانية . كنت أكشف عن جديد فى كل حين . كان ثمة اتجاه واحد تقف دونه هذه الاكتشافات . هو ذلك الغموض الذى كان يكتنف سلوك الفتى فى المدرسة وكان علىّ أن أواجه ذلك الغموض بلا تحسر . ولعل الأقرب الى الحقيقة أن أقول انه هو نفسه قد جلا عن نفسه ذلك الغموض دون أن يبين عنه بكلمة . فجعل من التهم الموجهـــة اليه جميعا

مجموعة من السخف . وقد وصلت الى استنتاجى من تلك الحمرة الوردية الصادقة التى كانت تعلو وجهه مبينة عن براءته .. لم يكن به من عيب الا أنه كان أكثر رقة ونعومة من أن يحيا فى تلك المدرسة الصغيرة القذرة المخيفة . وقد دفع ثمن ذلك غاليا .

رحت أتأمل هذه الفوارق الفردية ؛ ذلك المعدن السامى الذى يتمتع به الكثيرون الذين قد يكون منهم حتى أولئك النظار الأغبياء ، كل هذه الأمور تتحول آخر الأمر الى حقائق تكاد لا تقبل المناقضة .

وكان كلا الطفلين رقيقا ، وكانت الرقة فيهما هى خطؤهما الوحيد . وكانت هذه الرقة نفسها هى التى ابتعدت بميلز عن الجفاء . كما ابتعدت بكلا الطفلين أن يمتد اليهما منى أى عقاب .. وكيف كان يمكن أن أفعل ذلك. كانا أشبه ما يكونان بالملائكة التى يرسمها القصصى الخيالى . أولئك الذين يسمون الى المثل العليا فلا يعوقهم فى سموهم عائق ! أذكر — بنوع خاص — ذلك الشعور الذى أحسست به تجاه ميلز ، فقد كان بعيدا عن أن يسجل حدثا فى التاريخ . أننا نتوقع من طفل صغير قلة من البوادر ؛ أما ذلك الطفل الجميل فقد كانت رقة احساسه غير عادية ، الا أنه كان على الرغم من

ذلك سعيدا سعادة غير عادية . كانت سعادته تفوق سعادة أى طفل رأيته قبل ذلك ، وقد أذهلنى اننى كنت ألمح فيه جديدا فى كل يوم . لم يعان الألم لحظة واحدة . واتخذت من ذلك دليلا على أن الهموم لم تتسرب الى نفسه مطلقا . فلو كان شريرا لحاقت به تلك الهموم . وكان لابد لى أن أجد بقايا فى نفسه ، ولو كان يحس جرحا أو عارا لأحسستهما ولكن شيئا من هذا لم يبد أمامى ، وهكذا لم يتضح لى الغلام الا عن ملك مكتمل . لم يتكلم عن مدرسته أبدا ، ولم يذكر صديقا أو مدرسا مطلقا . ومن جانبى كنت أحقرهم فلا أذكر من أمرهم شيئا . لا شك اننى كنت فى ذلك واقعة تحت تأثيره . والشىء الجميل أننى — حتى فى ذلك الحين — كنت أعلم اننى واقعة تحت تأثيره . ولكنى أسلمت نفسى الى ذلك الشعور ، فأصبح مقدمة لآلامى . وقد كانت آلامى كثيرة . كنت أتسلم فى هاته الأيام خطابات من منزلى تبعث على الاضطراب . فان الأمور لم تكن متسقة فى مجراها . ولكن — ومرح هؤلاء الأطفال يطالعنى — أى شىء فى العالم يمكن أن أكترث به ؟ كان ذلك السؤال الذى تعودت أن ألقيه على نفسى كلما خلوت اليها . أهوش الأوراق بأسطرى . لقد كنت معجبة غاية الاعجاب بلطفهما .

وفى يوم من أيام الآحاد أمطرت السماء بغزارة لساعات طوال حتى لم يصبح فى الامكان أن نقصد الى الكنيسة وهكذا اتفقت مع المسز جروز أن نذهب الى الصلاة عند الغروب اذا أمكننا الجو من ذلك ، ولحسن الحظ توقف المطر، فأعددت نفسى للمسير عازمة أن نخترق الحديقة العامة والطريق الرئيسى الى القرية ، وقد كان ذلك يقتضينا عشرين دقيقة . وما ان نزلت الى البهو حتى التقيت برفيقة سيرى ، وتذكرت القفاز الذى كان ممزقا من ثلاثة مواضع ثم اصلح أمره علانية . حين كنت جالسة مع الأطفال الى مائدة الشاى فى يوم من أيام الآحاد فى تلك الخميلة الحلوة النقية الأرجاء المصنوعة من خشب الماجونى والنحاس ، والتى كانت تتخذ كغرفة طعام للكبار . كان القفاز ملقى هناك ورجعت لأحضره .

لم يكن الظلام قد سقط بعد ، كانت خيوط الأصيل ما زالت تتلألأ فاستطعت أن أخطو الى الخميلة ، وأن أرى ما كنت أبحث عنه ماقى على كرسى بجانب الشباك المغلق، وقد أمكننى هذا الضياء نفسه ان أحس تلك النظرة المباشرة التى كانت موجهة الى من الخميلة من ذلك الشخص. كانت خطوة واحدة الى داخل الخميلة كافية لالقاء نظرة سريعة والعثور على

ماكنت أبغى. وكان الشخص الذى ينظر بالحاح هو نفسه الذى ظهر لى من قبل . وهكذا ظهر لى ثانية ، ولا أقول انه أكثر وضوحا فى هذه المرة فقد كان الوضوح مستحيلا بالنسبة له ولكنه كان أقرب لأنه اتخذ الى اتجاهى بضع خطوات . وما ان التقيت به حتى أمسكت أنفاسى وعرتنى قشعريرة . انه هو نفسه .. انه هو نفسه .. وها هو ذا واضح المعالم وضوحا لم يتبين لى من قبل سواء أكنت أنظر اليه من النافذة أم من غرفة الطعام أم من الأرض . فقد كان لا يطأ الشرفة التى كان واقفا على طرفها .

كان وجهه ملتصقا بالزجاج ، وهكذا رأيت جلية وجهه ، واستبان لى مدى الحقيقة فى الصورة الى كنت كونتها عنه قبلا . ولم يقم فى موقفه الا لحظات ولكنها كانت كافية لان أقتنع أنه هو الآخر قد رآنى وتبين أمرى ، حتى لقد خيل الىّ أنه ظل سنوات ينظر الى . بل لقد خيل الى أننى كنت أعرفه طوال هذه السنوات . وعلى أية حال فقد حدث فى هذه المرة شىء لم يحدث من قبل . لقد ظلت نظراته المتمعنة الى على عمقها وقساوتها التى كانت عليهما من قبل ، ولكن هذه النظرة تحولت عنى للحظة قصيرة استطعت خلالها أن أظل على مراقبتى له فاستبان لى أنه يتمعن عدة أشياء أخرى . وفى الحال تأكد

لديه أنه لم يأت من أجلى ، وأنه قد جاء من أجل شخص آخر .

وكانت ومضة هذا الاستنتاج الذى نبت من أعماق الخوف ذات أثر عميق فى نفسى ، وقد بدأ فى نفسى — منذ هذه اللحظة — صراع متردد بين واجبى وشجاعتى . وقد كنت محتاجة لهذه الشجاعة لأننى كنت أوغلت فى الخميلة . قفزت طريقى الى الباب ثانية . بلغت باب المنزل وفى لحظة كنت على أول الممشى المؤدى الى الباب الداخلى ثم اخترقت الشرفة سريعة ما وسعتنى السرعة . ثم انحرفت الى ركن فرأيت ذلك الشخص كاملا . ولكن لات حين رؤية فانه ما لبث أن توارى عن الأنظار .

وتوقفت أو قل اننى سقطت شاعرة أننى قد أزحت عن كاهلى حملا ثقيلا . ولكننى جعلت أسترجع المنظر جميعه ، وأتيح له وقتا يعود فيه للظهور ، أدعوه وقتا ؟ ولكن ما مداه ..؟ لست أدرى !

لا أستطيع الكلام اليوم عن المدة التى استغرقتها هذه الأشياء ، فما كنت لأقيم للوقت وزنا فى ذلك الحين ، والا لما استطالت تلك الحوادث كما أحسست بطولها ؛ اذ أن الشرفة والمكان جميعا .. الحشائش الجافة والبستان من خلفها .. وكل

ما يمكننى رؤيته من الحديقة العامة . كل ذلك كان خاويا ، يملؤه فراغ ضخم .

كانت ثمة نباتات صغيرة واشجار ضخمة ، ولكننى أذكر تماما أن شيئا من النباتات أو الأشجار ما استطاع أن يحجبه عنى ، اننى واثقة من ذلك . فقد دفعتنى الغريزة الى أن أتجه الى الشباك ، وحيرنى فى أمرى ، أترى يجدر بى أن أقف فى نفس المكان الذى كان يتخذه من الشرفة أم لا . ولكننى اتخذت المكان نفسه ، وقفت الى الشباك ورحت أنظر كما كان ينظر هو فى الغرفة . ودخلت المسز جروز الى البهو ، فخطر لى أن أتخذ منها نفس الموقف الذى كان هو يتخذه منى . وبهذا أستطيع أن أحصل على صورة صادقة لكل ما حدث . رأتنى كما كنت أرى الزائر.. ففزعت كما فزعت . لقد أعطيتها بعضا من القشعريرة التى كنت قد استقبلتها . شحب لونها فسألت نفسى ان كان هذا الشحوب قد اعترانى أنا أيضا . وراحت تتفرس وجهى ، ثم قفلت راجعة فى نفس الخط الذى كنت أسير فيه وأنا خائفه . وعرفت انها خرجت ثم استدارت وجاءت الى ، وعرفت أننى سألتقى بها بعد قليل . وبقيت حيث كنت، وبينما كنت أنتظر كانت تدور بذهنى أمور كثيرة، ولكن أمرا واحدا منها أتيح لنفسى أن أؤكده . كنت أعجب لماذا خافت المسز جروز .

الفصل الخامس

وتراءت لى ثانية حين بارحت الركن الذى كنت أقف به ، كانت مبهورة الأنفاس محتقنة الوجه :

— ماذا حدث بحق السماء ؟

ولم أقل شيئا حتى اقتربت منى ثم قلت :

— ماذا حدث لى ؟

لا بد أن وجهى كان واضح التعبير فى هاته اللحظة فقد سألتها :

— هل يبدو على أثر ؟

— انك بيضاء كشبح ، انك تبدين مفزعة .

قد توقعت ذلك . كنت واثقة من صدق خوفها . ولم أكن بحاجة اذ ذاك أن ألتذ تلك النضارة التى كانت تزدهر فى وجه المسز جروز ، فما كنت لأضيق بفقدانها لتلك النضارة .

وان أكن قد ترددت لحظة فى مدى خوفها الا أن ذلك لا يتفق مع ما أكنه لها فى نفسى .

أسلمتها يدى فاستقبلتها . أمسكت يدها بشىء من القوة سعيدة ان أحسها قريبة الى . كان ثمة نوع من العـون فى دهشتها الخجلانة .. قالت :

— لقد قصدت الى من أجل الكنيسة طبعا ، ولكننى لا أستطيع الذهاب .

— هل حدث شىء ؟

— نعم . يجب أن تعرفى الآن . هل أبدو لك غامضة ؟

— من خلال هذه النافذة . انه لأمر مخيف .

— نعم لقد تملكنى الخوف .

وبدا من عينى المسز جروز انها تريد أن تتأبى على الخوف، كانت تعلم تماما أن مكانها لا يسمح لها مطلقا ان تشاركنى همومى . الا أنه أصبح من المقرر أن تشاركنى هذه الهموم ، قلت لها :

— ان ما رأيته عند غرفة الطعام منذ لحظة هو باعث ذلك الخوف . وان ما رأيته قبل ذلك أدهى منه وأمر .

وتصلبت يدها وهى تسأل :

— وما ذاك الذى رأيته ؟

— رجل عجيب ينظر الى الداخل .

— أى رجل عجيب ؟

— لا أدرى عنه شيئا مطلقا .

وأدارت المسز جروز عينا محملقة فيما حولنا ولكن بلا جدوى ثم سألت :

— اذن فالى أين ذهب ؟

— ما زلت جاهلة بذلك أيضا .

— هل رأيته قبلا ؟

— نعم رأيته مرة عند القبة القديمة .

واستطاعت أن تجعل نظرتها أكثر حدة وهى تسأل :

— هل تعنين أنه غريب عن هذا المكان ؟

— غريب .. لا شك .

— الا أنك لم تخبرينى عندما رأيته أول مرة .

— نعم لم أخبرك فقد كان عندى من الأسباب ما يحملنى على الكتمان . أما الآن فأظنك تتصورين الأمر .

واستطاعت أعين المسز جروز المستديرة أن تتبين ما حل بى من تغيير . وقالت :

— بل انى لا أتصور شيئا ، وكيف أستطيع أن أفعل اذا كنت انت نفسك لا تستطيعين .

— لا .. انى لا أطيق .

— أما رأيته أبدا الا عند القبة ؟

— وفى هذه البقعة الآن .

وراحت المسز جروز تدير فى المكان انظارها ثانيـة ، وسألت :

— وماذا كان يفعل عند القبه ؟

— لا شيء الا أنه ظل ينظر الىّ !!

وفكرت لحظة ثم سألت :

— أيبدو عليه انه من السادة ؟

ولم أكن بحاجة الى التفكير فى الاجابة وانما قلت :

— لا ..

فحملقت المسز جروز وقد تضاعف عجبها ، فقلت ثانية :

— لا ..

— ألم يكن أحد معه حينذاك ؟ لا أحد من القرية ؟

— لا أحد .. لا أحد مطلقا .. انى لم أخبرك ولكننى واثقة مما أقول .

وتنفست فى راحة ، فأحسست أنها توشك أن تستعيد حالتها الطبيعية . الا أنها راحت تقول مرة أخرى .

— ولكن اذا لم يكن سيدا ..

— فأى شىء هو ؟ .. انه الذعر بعينه .

— الذعر ؟

— انه .. انه .. الله لى فانى لا أعرف ما هو .

وأدارت المسز جروز عينها فى المكان مرة أخرى ثم ثبتت عينها الى الأفق ثم استجمعت واستدارت الى بلا تفكير ، وقالت :

— لقد آن لنا أن نكون فى الكنيسة .

— اننى لا أصلح للكنيسة .

— ألا تفيدين من الذهاب اليها ؟

— لا فائدة من ذلك .

وأومأت الى حيث ينام الأطفال فسألت المسز جروز :

— الأطفال ؟

— لا أستطيع أن أتركهم الآن .

— خائفة انت ؟

وقلت بشجاعة .

— اننى أخشاه .

وتلألأت على وجه المسز جروز — لأول مرة — مخايل شعور عميق . تبينت فيه مشرق فكرة لم ادركها فهى ما زالت مغلقة فى كثير من الغموض ، وفى لحظة أومضت فى ذهنى الفكرة كأنها هبة أستطيع أن أستوهبها اياها . وأحسست أنها تحتاج الى كثير من الايضاح ، قالت :

— ومتى كان على القبة ؟

— حوالى منتصف الشهر فى مثل هذه الساعة .

— فى مغيب الشمس !

— لا .. لا .. لم يكن الليل قد خيم ، فقد رأيته كما أراك الآن .

— فكيف استطاع الدخول اذن ؟

وضحكت قائلة :

— بل وكيف استطاع الخروج ، لم تتح لى الفرصة لأسأله ! فهو الليلة لم يستطع الدخول كما ترين .

— لم يستطع الا التسكع حول البيت !!

— أرجو أن يكتفى بذلك !

وعندئذ تركت يدى ، واستدارت عنى بعض الشىء ، وانتظرت لحظة ثم قلت :

— أذاهبة الى الكنيسة ؟ رافقتك السلامة فانه لا بد لى أن أرعى الأولاد .

وفى بطء واجهتنى ثانية .

— أتخشين عليهم ؟

والتقينا فى نظرة أخرى فسألتها :

— وأنت ، ألا تخشين عليهم ؟

وبدلا من أن تجيب سؤالى اقتربت من الشباك وظلت مسلمة رأسها الى الزجاج بضع لحظات تابعت فيها حديثى :

— أترين الآن الى أى مدى يستطيع أن يتبين ما يشاء ؟

وظلت فى موقفها وهى تسأل :

— كم لبث هنا ؟

— لبث حتى خرجت الى الحديقة ، فكأنما خرجت لألقـاه .

واستدارت المسز جروز أخيرا ، وبدت على وجهها أسئلة كثيرة ما تزال تدور بذهنها فهى تسأل :

— لو كنت فى مكانك ما استطعت الخروج .

وضحكت ثانية وقلت :

— ولا أنا ! ولكن كان لابد لى أن أؤدى واجبى .

— وان علىّ أنا أيضا واجبى ... من يشبه فى الناس ؟

— كنت متلهفة الى سؤالك هذا ، ولكنه لا يشبه أحدا فى الناس .

ورددت المسز جروز :

— لا أجد ؟

— انه بلا قبعة .

ورأيت فى وجهها أنها على نفس شعورها ، لم يجد عليها الا ضيق أكثر عمقا ، وقد أصبحت فى حالتها الأخيرة أشبه ما تكون بصورة لرسام ، وهكذا أسرعت أضيف الى الصورة جديد ملامح .

— ان شعره أحمر فاقع الحمرة ، مجعد ، مفلفل ضيق الثنايا ، أما وجهه فشاحب ، ميال الى الطول ، ذو ملامح

قوية تحده سوالف صغيرة فيها غرابة حمراء كشعره . حواجبه أقل حمرة من شعره بعض الشيء ، وهى تبدو مقوسة تماما . وهو يكثر من تحريكها ، عيناه حادتان . غريبتان للغاية . ولكنى أعلم تماما أنهما صغيرتان جامدتان . وهو واسع الفم رقيق الشفاه ، وهو — فيما عدا ذلك — حليق اللحية كبير العناية بها . أوحى الىّ شكله أنه ممثل .

— ممثل !

انه المستحيل أن أشبه المسز جروز بغير ممثلة فى هـذه اللحظة ، تابعت حديثى ..

— اننى لم أر فى حياتى ممثلا ، ولكننى أتصورهم ، انه طويل نشيط معتدل القامة ، ولكنه لا يمت بصلة الى السيد المهذب .. لا انه لا يمت اليه بأية صلة .

وامتقع وجه صديقتى وأنا أتابع حديثى وأخذت عيناها المستديرتان تتأرجحان ، وأخذ فمها الهادىء يتسع وتنهدت وهى تسأل فى ارتباك غبى :

— أليس سيدا مهذبا ؟

— أنت تعرفينه اذن !

وحاولت جاهدة أن تتماسك وهى تقول :

— ولكنه جميل .. أليس كذلك ؟

وأحببت أن أريحها فقلت :

— جمالا لافتا للنظر .

— وملبسه ؟

— لا .. انه لا يلبس ملابسه الخاصة ، انها ملابس شخص آخر ، انها ملابس أنيقة ولكنها ليست له .

وانطلقت منها أنة لا حياة فيها وهى تقول :

— انها ملابس السيد .

وانتهزت الفرصة فأسرعت قائلة :

— تعرفينه اذن ..؟

فترددت هنيهة ثم صاحت :

— كوينت .

— كوينت ؟

— پيتر كوينت ، الخادم الخاص للسيد ، تابعه حينما كان هنا .

— ومتى كان السيد هنا ؟

كانت ثمة فجوة بينى وبين المسز جروز ولكننا ما لبثنا

أن التقينا ، فقد جمعت عناصر الموضوع وراحت تقول :

— انه لم يلبس قبعته أبدا الا أمام السيد ، وقد كان كلا الرجلين هنا فى العـام الماضى . ثم ذهب السيد وظل كوينت وحيدا ..

وتتبعت حديثها بشىء من التمعن ، سألت :

— وحيدا !

— وحيدا معنا .

ثم قالت من أعماقها :

— وقد كان مكلفا بحراستنا .

— وماذا فعل ؟

وزادت النار لهيبا فازداد الأمر غموضا أمامى ، ثم أباحت سرها أخيرا .

— لقد غادرنا هو أيضا .

— غادركم ! الى أين ؟

وكان تأثير هذا السؤال فيها غير عادى .

— الله وحده يعلم الى أين ، لقد مات .

وكدت أبكى وأنا أسأل :

— مات ! ؟

وراحت تحيط نفسها بالنظرات الخائفة ، وقد جمدت مكانها فكأنما هى نبتة من الأرض ، مذعورة دهشة وهى تقـول :

— نعم .. لقد مات المستر كوينت .

الفصل السادس

لم أكد أعبر الممر حتى التقيت بالمسز جروز فى ذلك المكان الذى قدر لكلينا أن نعيش فيه .

كنت قد تعرضت لنموذج واضح من الرعب الذى سأعيش منذ اليوم فيه أنا ورفيقتى . أصبحت نهبا للخوف والقلق وفى هذه الأمسية بعد أن تبين السر الذى كان خافيا لم يقم أى منا بعمل اللهم الا تلك الدموع والصلوات والوعود التى بلغت قمتها فأصبحت أشبه بالوعيد . ولم نجد ملجأ الا حجرة الدراسة نحكم رتاجها على أنفسنا . نبعد بالرتاج المخاوف عنا ونبقيها خارج الغرفة . وكانت نتيجة اقصاء المخاوف أن اطمأنت قلوبنا بعض الشىء .

ان المسز جروز نفسها لم تر شيئا .. لم تر ظل الشبح ، لم تر بالمنزل الا المربية وقد ارتدت ملابس العمل .. الا أنها صدقت كل الحقائق الذى ذكرتها لها دون أن تتشكك فى قواى العقلية ، وبهذه الثقة فيما أقول راحت تظهر لى رقة فى

المعاملة تحاول بها أن تخفف ذلك الرعب الذى ألم بى ، جاعلة ما أنبئها به محل احترام وتقدير ؛ وقد أحاطتنى هذه الروح الانسانية بجو عميق من الأخوة الكريمة .

وقد قررنا فى ليلتنا تلك قرارات جعلتنى أحس أننا قد نستطيع أن نواجه الأمور متحدثين وعلى الرغم من أنها لم تلتق بالشبح فقد كان العبء الملقى على عاتقها فى قراراتنا أكبر من ذلك الذى احتملته أنا .

وعلمت فى هذه اللحظة — وتأكد لى علمى هذا فيما بعد — ما يمكن أن أواجه لحماية تلاميذى ، ولكنى احتجت لبعض الوقت لأصبح واثقة مما تطيق رفيقتى أن تنفذ من ذلك العبء الذى ألقته اتفاقيتنا على عاتقها . كان مسلكى غريبا بالنسبة اليها ، غريبا أقرب ما يكون فى غرابته من مسلكى ازاء الشبح الذى التقى بى . ولكنى كلما استعدت الماضى تبين لى الى أى مدى كانت فكرتنا عما يجب أن نفعل متقاربة. هذه الفكرة وما يتبعها من خطوات جعلتنى أقذف بنفسى الى أعماق مخاوفى . خرجت الى الفناء لأستنشق الهواء ورافقتنى المسز جروز . وأستطيع أن أذكر تماما تلك القوة العجيبة التى ملأت جوانحى قبل أن نفترق فى المساء .. لقد رحنا نستعرض كل الظواهر التى عرضت لنا .

وسألت المسز جروز :

— قلت لى انه كان يبحث عن شخص آخر ..

— انه كان يبحث عن ميلز الصغير .. انه ميلز من يريد .

واتضح الأمر لى حينذاك ولكنى سألت :

— ولكن كيف عرفت ؟

— أعرف .. أعرف .. أعرف ..

فازداد تشوقى .

— ألا تعرفين أنت أبدا ياعزيزتى .

ولم تنكر ذلك ، ولكنى لم أكن أنتوى أن أذكر لها هذه التفاصيل وان تكن فهمت الأمر فى سرعة وامضة ؟

— وماذا يحدث اذا رآه ؟

— تقصدين ميلز الصغير ؟

— نعم فهو من يريد .

ثم بدا عليها الذعر ثانية وهى تسأل :

— الطفل ؟

— لا قدر الله أن يريده ، أيأخذه ذلك الرجل ، انه يريد أن يلتقى بهما .

وكان هذا افتراضا مرعبا ، ولا أدرى كيف استطعت أن أحتمله ، وكلما طال تلكؤنا بالخارج رحت أبرهن لها على صدق ما أذهب اليه . كنت واثقة أننى سأواجه ما واجهت ثانية ، ولكن هاجسا فى داخلى كان يهتف بى أن أخوض الأمر فى جرأة لأننى الوحيدة التى يعنيها هذا الموضوع ، فعلى أن أقبله ، وأتغلب على كل الصعاب التى تعترضنى وان اقتضانى ذلك أن أقدم نفسى ضحية لأذود عن الهدوء الذى يجب أن يشمل المكان وأفراد العائلة . فقد كان لابد لى أن أحيط الأطفال خاصة بالسلام الأمين . وتذكرت أحد الأشياء التى قلتها للمسز جروز فى آخر المساء . « انه يدهشنى أن تلميذى لم يذكرا هذا الأمر مطلقا .. » وحدجتنى بانعام حتى لقد أحسست أننى أجذب نفسى من تحت نظراتها فقالت :

— لقد كان هنا وقضى وقتا معهما ؟

فقلت :

— فانهما لم يشيرا قط الى ذلك الوقت الذى قضاه معهما كما لم يشيرا الى اسمه أو وجوده أو تاريخه .

فقالت :

— ان الآنسة الصغيرة لا تذكر فهى لم تسمع عنه ولم تعرفه .

ورحت أفكر فى تعمق فى الظروف التى أحاطت بموته ، وقلت :

— لعل الآنسة لا تذكر ولكن ميلز لابد أن يكون ذاكرا وعارفا بكل شىء ..

وحينئذ انفجرت المسز جروز مقاطعة :

— بربك لا تسأليه عن شىء من هذا .

وحدجتها بتلك النظرة التى ألقتها الى ثم قلت بعد تفكير :

— لا تخافى ولكن الأمر غريب بعض الشىء .. لماذا لم يذكره أبدا ، انه حتى لم يشر اليه اشارة ، وقد أخبرتنى أنهما كانا على صداقة وطيدة .

فأعلنت المسز جروز فى تأكيد :

— لم تكن الصداقة من جانبه وانما كانت من وحى خيال كوينت ، فان اللعب معه افساد فيما أعتقد ..

وتوقفت لحظة ثم أضافت :

— لقد كان كوينت يبيح لنفسه من الحرية أكثر مما يجب له .

وقد اختلط هذا الوصف فى ذهنى بما رأيته على ملامح وجهه فأحسست نحوه باشمئزاز كاد يؤدى بى الى المرض .

وسألتها :

— أكان يتيح لنفسه هذه الحرية مع الطفل ؟ .

فقالت :

— لقد كان يتيحها لنفسه مع كل انسان .

ورحت أحاول وحدى تحليل ما تقوله بدلا من أن أقرر أن بعض هذا الوصف كان ينطبق على الكثيرين من أفراد هذا المنزل .. على هؤلاء الستة من الخدم والخادمات الألى يكوّنون مستعمرتنا الصغيرة ، فقد كانت الدلائل مجمعة على الاعتراف بهذه الحرية التى يبيحونها لأنفسهم . انى لا أذكر أن أمرا ثبت فى ذهنى ثبوت هذه الأسطورة التى تمت الى هذا المنزل العتيق ، البرىء من الاسم السىء ومن السمعة المشينة ، لم تكن المس جروز تحاول الا أن تقترب منى ، وأن تصبح على هذا السكون المطبق . وكان آخر ما أفكر فيه أن أجعل منها موضع اختبارى . كنا فى منتصف الليل عندما وضعت يدها على باب حجرة الدراسة لتنصرف عنى فقلت لها :

— لقد تأكدت لدى من حديثك حقيقة الأمر ، فانه كان رجل سوء أمر" على جانب كبير من الأهمية .

فقالت :

— لا .. لست واثقة ، فقد عرفت أنا ذلك أما السيد فلم يعرف .

فسألتها :

— وأنت ألم تخبريه أبدا ؟

فقالت :

— لا ، فانه لا يحتمل أن يسمع شيئا ، انه يكره الشكاوى انه يضيق بمثل هذه الأمور الى أقصى حد ، فما دام الناس معه على ما يرام ..

فقاطعتها قائلة :

— فانه لا يعبأ بشيء بعد ذلك .

كان ذلك يتفق مع الفكرة التى كونتها عنه ، لم يكن ذلك الرجل الذى يحب أن يواجه المآزق فى سبيل حبه للآخرين ، ولا هو حتى بالرجل الذى يجهد كثيرا فى اختيار رفاقه وأصدقائه ، وعلى أية حال فقد حاولت أن أستكمل منها معلوماتى .

— لقد وعدتك ، أننى سأنبئك ..

وأحست المسز جروز قدرتى على تقدير الأمور ، وأنى

أجرؤ على القـول بأننى مخطئة ، ولكنى فى الواقع كنت خائـفة .

— ومم الخوف ؟

— تخافين مما يستطيع الرجل أن يفعله ، لقد كان كوينت فى غاية المهارة والخبث .

لم أبد من الاهتمام بهذه الجملة قدر ما كنت أخفى ، وسألت :

— ألم تكونى خائفة من أى شىء آخر .. ألم تخشى أثره ؟

وأعادت المسز جروز الكلمة « أثره ؟ » أعادتها بوجه ملىء بالرعب ، وفى ريث جعلنى أتلعثم وأنا أقول :

— نعم أثره على تلك النفوس الصغيرة البريئة ، فقد كنت أنت المسئولة عنهما .

فقالت فى مداورة حزينة :

— لم أكن مسئولة عنهما ، لقد كان السيد يثق به ، وهو من وضعه هنا ، فقد كان المعتقد أنه لا يتمتع بكامل صحته ، فعهد به الى جو الريف الذى كان يناسبه وقد كان السيد فى ذلك محقا ، نعم انه محق فى كل ما يتصل بالأطفال ...

— الأطفال ؟ هذا المخلوق..

لقد كان لابد لى أن ألطف من الثورة التى سأنفجر بها فسألت :

— واحتملت أنت هذا ؟

— لا ، لم أحتمل ، ولا أحتمل الآن .

وانفجرت المرأة المسكينة باكية .

ومنذ اليوم التالى أحطت الطفلين برقابة عاتية ، الا أنه ما أكثر ما عدنا الى نفس الموضوع طوال الأسبوع وما أكثر ما اضطربت مشاعرنا حين كنا نعود اليه ! فمع أننا قد أطلنا النقاش فى هذا الأمر فى مساء الأحد الا أننى ما زلت مذعورة من شبح أمس انها تخفى عنى أمره ، أنا — من ناحيتى — لم أكتم عنها شيئا ، ولكنى أحس أنها تكتم عنى كلمة .. كلمة معينة بالذات ، فقد كنت واثقة عند الصباح أن كتمانها لم يكن عن خبث طوية أو افتقـاد صراحة ، ولكنه كان عن ذلك الخوف الذى ألم بنا من كل جانب ، لقد خيل الى — وأنا أقلب الأمر على جميع وجوهه — أنه حين تشرق شمس الصباح سأتبين على صفحات الحقائق كل المعانى المنبعثة عن ذلك المستقبل الحافل بالأحداث القاسية . كان أهم ما طالعنى

من تلك الحقائق هو ذلك الشبح الموحش لذلك الرجل ، وحينما أفكر هذا التفكير يتراءى ذلك الشبح هنيهة ، وتمثلت أمام عينى تلك الشهور التى قضاها فى بلاى ، التى تكون زمنا ممتدا للغاية اذا نحن ضممنا بعضها الى البعض ، وقد بلغت هذه الأوقات الشريرة غايتها عند فجر يوم من أيام الشتاء حين وجد فلاح فى طريقه الى عمله المبكر بيتر كوينت ملقى جثة هامدة على طريق القرية وقد يمكن تعليل هذه الكارثة من الناحية الشكلية عند تبين ذلك الجرح الغائر فى رأسه ، ذلك الجرح الذى قد ينتج عن انزلاق مميت ، فى المساء بعد مغادرته للحانة الواقعة على منحدر تكسوه الثلوج وبعد أن انتهج الطريق الخاطىء الذى وجد ملقى عند نهايته .. ذلك المنحدر المكسو بالثلج ، وذلك المنحنى الذى أغرقته مياه الثلوج ، وذلك الظلام الذى يشمل المكان ، كل هذه الأشياء كانت موضع اعتبار عندما وجـدت الجثة ، وثارت الاستفسارات وكثر اللغط الذى يثار حـول مثل هـذه الحوادث .

يالها من طرقات ويالها من مخاوف ويالها من فوضى مريبة تحيطها الرذيلة أكثر مما يحيط بها الشك .. نعم هذه الأمور كانت أكثر أهمية عند وقوع الحادث .

انى لا أكاد أقيم قصتى فى كلماتى حتى تصبح قريبة التصديق .. كنت فى هذه الأيام قادرة على تبين المتعة فيما يحيط بى من يقف يحتاج منى الى البطولة الجريئة . لقد تبين لى الآن أنه قد عهد الى بعمل صعب المراس ، يجعلنى ان أتممته موضع اعجاب ويتيح لى آفاقا من الاجلال ، اننى نجحت حيث كان كثيرات غيرى معرضات للفشل ، وقد شد أزرى أننى تمثلت مسئوليتى على هذه الصورة وبهذه البساطة وأعترف أننى كلما أعدت النظر الى هذه الأيام الخالية صفقت لنفسى معجبة .

لقد كنت هناك لأحمى الطفلين وأرفع عنهما ما تطالعهما به الحياة .. الطفلين اللذين نزعت من حولهما كل عاطفة وتمتعا بكل ما يحببهما الى الناس . وقد كان شعورى بالوحدة التى تحيط بهما يملأ نفسى بألم عميق لا يزايلنى ، كنا كأنما قطعنا من الحياة معا ، لقد كنا وحدة فى أخطارنا . لم يكن لهما الا أنا ، أما أنا .. أنا فقد كانا هما لى . لقد كانت فرصة رائعة ، تلك الفرصة التى قدمت نفسها لى فى صورة مليئة بالحياة ، كنت كالشاشة البيضاء تقف دونهم ، فكلما كثر ماأرى قلّ ما يريان . لقد بدأت أرقبهما فى تشكك ، وفى اعياء ، حتى انى أحسست أن الأمر اذا ما طال بنا فقد يؤدى

بى الى الجنون . وما أنقذنى — فيما أعتقد الآن — أن الأمر بأجمعه أخذ وجهة أخرى . ولم يطل الشك بنا ، وانما استقر به القرار بالبراهين المخيفة ، وقد انثالت تلك البراهين منـذ اللحظة التى توليت فيها الأمر .

وفى أصيل أحد الأيام كنت أقضى لحظات مع تلميذتى الصغيرة فى رحبة البيت . وكنا قد تركنا ميلز داخل المنزل هادئا فوق وسادة على كرسى عميق فقد كان يرغب أن يفرغ من قراءة كتاب ، وقد كان يسرنى أن أشجع رغبة طموحا مثل هذه فى الشاب الصغير الذى لم يكن يعيبه الا ذكاء متوقد يتوثب به فلا يقر له قرار . أما أخته فقد كانت على عكسه مترقبة أن تخرج معى ، وقد ماشيتها نصف ساعة رحت فيها أتحرى الظلال . فقد كانت الشمس تتوسط السماء وكان اليوم ملتهب الحرارة . كنا نمشى فى نشوة معا وقد حاولت — كما يفعل أخوها — أن تتيح فرصة الاختلاء الى نفسى دون أن تبتعد عنى ، فهى رفيقتى دون أن تتقاضانى عن رفقتها تضييقا أو عنتا ، وقد كان هذا أجمل ما فى الطفلين من سجايا فلن ترى واحدا منهما متجهما أبدا .

وقد لفت انتباهى أنهما قادران دائما على اشاعة البهجة والايناس فيما يحيط بهمـا دون أن يستعينا بى فى ذلك .

وهكذا جعلا من نفسيهما منظرا دائم الجمال وجعلا منى معجبة لهذا المنظر لا تنى عن اعلان اعجابها . وهكذا كنت أحيا فى عالم هما من خلقاه لى . وهما — على الرغم من ذلك — بعيدان دائما عن عالمى الخاص الذى أعيشه . وهكذا كنت دائما وأنا معهما أفكر فى شىء بعيد أو شخص آخر يستدعيه الى ذهنى نوع اللعبة التى يمارسانها ، وشكرا للسيد الذى كان قد أقر صورته فى ذهنى لا تكاد تبارحه . فأنا دائما أتمثله فى سمته هذا السعيد المترفع .

نسيت حقيقة وظيفتى فما عدت أذكر الا أننى شخص على غاية كبيرة من الأهمية ، وعلى غاية كبيرة من الهدوء . والا أن فلورا تلعب فى عنف شديد ، كنا على حافة البحيرة ، ولما كنا قد بدأنا دروس الجغرافيا أخيرا ، فقد جعلنا من البحيرة بحر آزوف .

وفجأة ومن بين هذه المعالم نبت من الشاطىء الآخر من آزوف متفرج ينعم النظر . وقد كانت الطريقة التى نبت بها أغرب شىء فى الوجود ، لا يفوقها فى الغرابة الا ذلك الأثر التى تركه ذلك المنظر فى نفسى . وقعدت وبيدى قطعة من الشغل ، فقد كنت شيئا يستطيع الجلوس على أية حال ، جلست على المقعد الحجرى القديم الرابض على البحيرة

ومن مجلسى هذا رحت أستوثق بنظرات غير مباشرة من وجود شخص ثالث على مقربة . كانت الأشجار القديمة ، والشجيرات الممتدة تلقى على المنظر ظلا ضخما رائعا . ولكنه كان مرقطا جميعه بشعاعات من الحرارة والهدوء ، كان الوضوح يشمل المكان جميعه من أشخاصه الى أشيائه ، أو أننى على الأقل كنت مقتنعة بهذا ، وقد كان هذا الرأى يزداد قرارا فى نفسى كلما امتدت به اللحظات وأنا ألقى بنظراتى عبر البحيرة . كنت مشغولة اذ ذاك بشغل الابرة الذى فى يدى ، وكنت أحس تماما هذا التـــوتر الذى أبذل جهدى للسيطرة عليه ، فأنا لا أرفع نظرى الا بعد أن يهدأ مضطربى فأصبح قادرة على تقرير ما أنا صانعة . لقد كانَ ثمة مرئيا يبـــدو من بعيد ، شخص كنت أتساءل فى حدة واصرار عن أحقيته فى اتخاذ موقفه هذا ، ورحت أذكر كل الاحتمالات وأمحصها ورحت أذكر نفسى أنه ليس شىء أكثر معقولية من ظهور رجل حول مكاننا هذا ، لعله أن يكون رسولا أو ساعى بريد ، صبى دكان من القرية . وقد كان لهذه الاحتمالات بعض الأثر على ما كان قد استقر فى نفسى من يقين عن شخصية زائرنا وموقفه . لم يكن شىء أكثر معقولية من أن يكون الشخص

واحدا من هؤلاء الذين ذكرتهم . وان كنت أدرى أنه ليس بأحد من هؤلاء .

ومنذ حاولت التثبت من الشخصية انبثقت فى كيانى كل الشجاعة التى تنحبس فى نفسى ، وفى نفس اللحظة أدرت نظرى فى جهد عنيف الى فلورا الصغيرة التى كانت حينذاك على مبعدة عشر ياردات منى . كان قلبى يوشك على التوقف من الخوف والحيرة أن تراها هى أيضا . وأمسكت أنفاسى متوقعة بين الفينة والأخرى أن تدوى صرخة منطلقة من الطفلة الصغيرة ، وما أصدق هذه الصرخة من تعبير سواء صدرت عن فزع أو عن اهتمام . انتظرت ولكن الصرخة لم تنطلق ، وأحسست أن ثمة شيئا لابد لى أن أقصيه ولعل هذا الاحساس كان أقسى ما اعترانى ، ثم خيل الى أن الطفلة قد فقدت فى لحظة كل صوت لها ، وانها فى خلال تلك اللحظة نفسها أدارت ظهرها للماء أثناء لعبها . كان هذا حالها حين نظرت اليها أخيرا .. نظرت اليها يملؤنى شعورا فى أننا كلينا واقفان لا نزال تحت ملاحظة مباشرة من شخص ما .

التقطت قطعة صغيرة مسطحة من الخشب ، كان بها ثقب صغير وما لبث هذا الثقب أن أوحى اليها أن تثبت الى القطعة الخشبية سارية صغيرة فتجعل من اللوح سفينة . وما لبثت

هذه القطعة الثانية أن أخذت مكانها فى ثقب اللوح فالتأم عليها فى عنف . وكان فهمى لما تقوم به جعلنى أتريث قليلا حتى اننى بعد لحظات أخرى أحسست أنه لابد لى أن أزيد من هذا التريث . وحولت نظرى مرة أخـرى ، وواجهت ما كان لابد لى أن أواجهه .

الفصل السابع

أمسكت بالمسز جروز فى أول فرصة أتيحت لى ، ولا أدرى كيف أمكننى أن أقضى الوقت حتى لاقيتها ، الا أننى ما زلت أسمع صوتى وأنا أصيح ملقية بنفسى بين ذراعيها وهى تقول :

— اذن فقد عرفوا ، يالها من وحشية !!

— وهل فى الأرض الا الوحشية ؟!

وأحسست استنكارها للأمور وهى تمسك بى قائلة :

— نعم ، اننا نعرف هذا ، والسماء أكثر منا معرفة !

وحين أطلقتنى رحت أوضح الأمر لها ، وعندئذ فقط أصبح الأمر جلى الوضوح حتى بالنسبة لى . قلت :

— منذ ساعتين كنت فى الحديقة وقد رأت فلورا ... لا أذكر تماما أكانتا ساعتين أم أكثر أم أقل ؟

وقد استقبلت المسز جروز الأمر وكأنها تستقبل لكمة فى المعدة . تنهدت وقالت :

— ألم تحادثك فى شىء عن هذا ؟

— ولا كلمة ، وهنا يكمن فزعى ، لقد أبقت السر على نفسها ! انها طفلة فى الثامنة من عمرها لا تزال !

ملكها الفزع حتى لم تنبس بكلمة ، ولم تزد المسز جروز بكلمة زادت من انفراج الدهش على وجهها . وقالت :

— اذن فكيف علمت أنها رأت ؟

— لقد كنت هناك ورأيت الأمر بعينى ، رأيتها فى تمام يقظتها .

— أتعنين أنها يقظة اليه ؟

— لا بل اليها .

كنت فى حديثى اليها أتطلع الى ما ينتظرنى من مستقبل فقد كنت أرى طوالعه تتوالى على وجه رفيقتى ، قلت :

— انه شخص آخر فى هذه المرة ، شبح من الشر والفزع لا تخطىء شره وبشاعته عين ، لقد كان امرأة فى سوادها ، شاحبة الوجه ، مذعورة الملامح ، تطالعنا من الشاطىء الآخر للبركة .. كنت هناك مع الطفلة .هادئة فىساعة هادئة قطعتها علينا بمجيئها .

— كيف جاءت ، ومن أين ؟

— من حيث يجيئون ! انها نبتت ووقفت هناك ، ولكن على غير مقربة .

— ودون أن تقترب ؟

ودون أن تقترب أحدثت من الأثر ما كانت تحدثه لو أنها اقتربت .

وانتفضت صديقتى الى الخلف انتفاضة غريبـة وهى تتراجع خطوة الى الوراء سائلة :

— أكانت امرأة لم تريها قبل اليوم أبدا ؟

— أبدا ، ولكنها امرأة رأتها الطفلة من قبل ورأيتها أنت.

ولأريها كيف استنتجت هذا رحت أقول :

— المربية السابقة ، تلك التى ماتت .

— مس جيسل ؟

— مس جيسل ، ألا تصديقيننى ؟ !

راحت تتلفت يمنة ويسرة فى حزنها .

— كيف تستطيعين التأكيد ؟

لقد أومض الأمر فى ذهنى باعثا القلق ، وقلت :

— فاسألى فلورا فهى واثقة .

وما ان بدرت منى هذه الكلمات حتى أمسكت لسانى ، ثم قلت :

— لا بربك ، لا تفعلى ، فانها ستقول انها ليست هى ، انها ستكذب .

لم تكن المسز جروز مرتبكة الى درجة تستطيع معها أن تحتج علىّ ولكنها سألت :

— فكيف تستطيعين .. ؟

— كانت واضحة ، فان فلورا لا تريدنى أن أعرف .

— لم يبق الا أن أتركك .

— لا .. لا .. ان هناك أمورا أكثر عمقا من ذلك ! وكلما تعمقتها اتضحت لى وكلما اتضحت لى تملكنى الخوف ، أنا لا أعرف الا الذى أراه .. ولا أعرف الذى لا أحسه !

وحاولت المسز جروز أن تطيل الحديث فقالت :

— أتعنين أنك تخافين أن تلتقى بها ثانية ؟

— لا .. ليس هذا ما أخشاه الآن .

ثم رحت أشرح لها :

— لا .. ليست خشيتى من رؤيتها .

ولم تزد رفيقتى على أن حملقت ساهمة وهى تقول :

— أنا لا أفهم شيئا .

— ولمه ؟ الآن الطفلة لن تفشى السر ، وانى واثقة أن الطفلة ستبقى ذلك السر ، وانى أؤكد هذا دون أن أعرفه .

وعندما تصورت المسز جروز هذا الاحتمال تداعت الى الأرض خائرة القوى . الا أنها حين حاولت أن تقوم ثانية أدركت أنها ان مالت عن موقفها شـــعرة فمعنى ذلك أن تستسلم أمامى تماما ، قالت :

— ياعزيزتى ، ياعزيزتى ، لابد لنا أن نظل على يقظة تامة.

وحاولت أن تطلق نكتة جادة فقالت :

— لعلها تحبها .

— أو تحب مثل هذه الأشياء .. أتحب أن تخيف جماعة من الأطفال ؟

وسألت صديقتى فى شجاعة :

— ألا يثبت ذلك أنها ساذجة ؟ !

وراحت تدور معى بالحديث وهى تقول :

— لابد أن تتمسك بسذاجتها ، فان لم يكن فى قولك

دليل على ذلك فثمة دليل مطوى فى علم الله ، فهذه المرأة هى الفزع الآخذ .

وحينئذ ألقت المسز جروز نظرها هنيهة الى الأرض ثم رفعته قائلة :

— خبرينى ، كيف عرفت ؟

فصحت :

— اذن فأنت تعترفين .. أنها هى .

فلم تزد صديقتى عن أن سألت فى بساطة :

— خبرينى كيف عرفت ذلك ؟

— عرفته برؤيتى لها ، والطريقة التى تنظر بها .

— اليك ، أكانت نظرتها شريرة ؟

— لا يا عزيزتى ، فقد كان من الممكن أن أحتمل هذا ، انها لم تلق الى أية نظرة ، ولكنها لم ترفع عينها عن الطفلة .

وحاولت المسز جروز أن تستوضح ذلك فسألت :

— لم ترفع عنها النظر ؟

— لم ترفع عنها النظر المنبعث من هاتين العينين المخيفتين وكانت تحملق فى عينى فكأنما هما فعلا تشبهان العيون الأخرى .

— أتعنين أنها كانت غير راضية ؟

— مطلقا ، بل ان الأمر كان أشد سوءا .

— أشد من عدم الرضا ؟

وقد ألقى بها سؤالها هذا الى حيرة بالغة فقلت لها :

— لقد كان يبدو عليها عزم راسخ لا يمكن وصفه يشوب هدفه لون من الغضب الشديد .

وقد أحالت كلماتى لون وجهها الى الصفرة فهى تسأل :

— أى هدف ؟

— أن تمسك بها .

وانتابت المسز جروز هزة راعدة ثم قصدت الى النافذة ، وقد التقت عيناها بعينى .

وحين وقفت الى النافذة تتطلع الى الخارج رحت أكمل حديثى :

— هذا ما كانت تعرفه فلورا .

وبعد قليل استدارت الى المسز جروز سائلة :

— تقولين ان الشخص كان فى السواد ؟

— سواد حزين ، واضح الفقر ، وقد علا البلى ما يرتديه من ملابس .

ورويدا رويدا وقعت المسز جروز فريسة لما علقته عليها من ثقة ، فهى سيدة تضع الأمور فى مواضعها السليمة . قلت لها :

— انه لأنيق ذلك الشخص .. نعم انه فى غاية الأناقة وان كان مهين السمعة . .

واقتربت المسز جروز فى بطء وقالت :

— تقولين ان مس جيسيل كانت مهينة السمعة .

ومرة أخرى احتوت يداها يدىَّ وأمسكت بهما فى شدة فكأنما تريد أن تمدنى بقوة تعيننى بها على هذه النذر المتوالية التى تنكشف عنها الأمور .

وأخيرا قالت المسز جروز :

— لقد كانت سمعة كليهما مهينة .

وواجهنا هذه الحقيقة معا هنيهة فوجدت فى ذلك عونا واضحا ، قلت :

— انى أقدر نبل أخلاقك الذى أوحى اليك أن تكتمى عنى سرهما حتى الآن . ولكن الوقت قد حان قطعا لأعرف الأمر على حقيقته .

وتظاهرت بأنها توافقنى على ذلك ولكنها ظلت على صمتها ، فاستطردت فى حديثى :

— لابد أن أعرف الأمر الآن .. بماذا ماتت ؟ هيا ، قولى ، لقد كان بينهما شىء ما .

— لقد كان بينهما كل شىء .

— على رغم ما بينهما من اختلاف ؟

— لقد كانا يختلفان فى المرتبة ، وفى الحالة العامة ، الا أنها تغاضت عن هذا جميعه ، لقد كانت امرأة .

وسكتت ، ورحت أقلب الأمر على وجوهه مرة ومرات حتى أدركت ما تعنيه المسز جروز ..

نعم لقد كانت امرأة وقالت المسز جروز :

— وكان هو فى الدرك الأسفل .

وأحسست أننى أصبحت فى غير حاجة الى ملاحقتها بالأسئلة وأنا فى صحبتها والحديث بيننا عن المربية ، ولكن شيئا لم يكن يمنعنى أن أقبل هذه المقاييس التى واجهتنى على انحطاط المربية السابقة لى ، لقد كان من الطبيعى أن أرضى عن ذلك وقد رضيت عنه ، فقد كنت مهيأة تماما لذلك منذ أن التقيت بسيدى الجميل السمت ، الوقح ، المدلل ، المنحل

نعم لقد كان السيد فى أخلاقه كلبـا ، وقد كان الأمر عند المسز جروز يكاد لا يحتمل شكا . قالت :

— اننى لم أر فى حياتى رجلا مثله ، كان يفعل ما يريد .

— معهم جميعا .

وخيل الىّ أن المس جيسل قد عادت الى الحياة فى عينى رفيقتى ، بل خيل الىّ لحظة أنها فعلا واقفة بجوار البركة ، وقد وضحت معالمها .

ولا بد أنها هى الأخرى كانت تريد ما وصلت اليه .وبدا على وجه المسز جروز أن الأمر كان كذلك الا أنها قالت :

— يا للمرأة المسكينة . لقد كلفها ذلك كثيرا .

فسألتها :

— اذن فأنت تعرفين بماذا ماتت ؟

— لا .. لا أعرف شيئا فقد أردت ألا أعرف ، وانى لسعيدة كل السعادة لأننى لم أعرف .

وقد شكرت الله أنها كانت تباعد بينى وبين هذه الأمور .

— الا أنك كوّنت رأيك .

— عن تركها لنا ؟

— نعم .

— لم تكن تستطيع أن تقيم ، تصورى أن تقيم مثلها هنا وتعمل كمربية وقد حاولت أن أتصور ذلك من بعد وما زلت أحاول ، ولقد كان ما تصورته مخيفا .

قلت لها :

— ما أظن أن الأمر كان سيصير الى أسوأ مما ألاقى الآن ؟

وأحسست أنه يجب على وجوباتاما أن أبين لها أننى قد غلبت على أمرى ، فحدا ذلك بها الى أن تبدو لى عن عاطفة غاية فى الرقة حتى لم تستطع الا أن تستسلم فانفجرت دموعا منهمرة ، تماما مثلما استطعت أن أفجرها دموعا فى المرة السابقة ، احتضنتنى الى صدرها الرؤوم ففاض بى الأسى ؛ ورحت أنشج وأنا أقول :

— ما كنت لأفعلها .. ما كنت لأحميهما أو أكتم عليهما ؛ ان ذلك أقصى شرا مما كنت أتصور .. انهما ضائعان .

الفصل الثامن

ان كل ما ذكرته للمسز جروز حق لا شك فيه ، الا أن الأمر الذى عرضته عليها كان يكتنف فى ثناياه بعض النواحى التى أحتاج الى شجاعة كبيرة لأفصح عنها ، ولكنا مع ذلك وجدنا نفسينا حين التقينا مرة أخرى متفقتين تماما على ألا نبحث تلك الخيالات التى تتراءى لنا — كان علينا أن نبقى على ثباتنا ما دمنا لا نستطيع أن نبقى على شىء آخر ولو أن المحافظة على هذا الثبات كانت فى ذاتها أمرا على غاية من الصعوبة فى تجربتنا الضخمة التى بدت واضحة المعالم .

وفى عميق الليل حين كان المنزل نائما دار بيننا حديث آخر فى غرفتى ، وقد ظللت بها حتى أصبحت وكأنما قد رأت هى ما ارتأيته أنا ، وظللت أنا ألح عليها بالأسئلة حتى أغوص بها الى صميم الموضوع ورحت أرسم لها فى تفصيل دقيق ملامح الأشخاص الذين يتراءون لى ، وما ان ارتسمت أمام عينيها صورهم حتى عرفتهم وأسمت كلا منهم باسمه وانى

لألومها الآن بعض اللوم لما تبينته منها حين ذاك من أنها تحاول أن تبتعد عن الموضوع جميعه ، وقد سارعت الى التأكيد أن كل ما يهمنى فى الأمر قد اتخذ صورة بحث عن طريق للهرب .

وأنهيت النقاش بيننا على ود رقيق محوط بالاحتمالات كما انتهيت أنا على أن أهىء نفسى للقاء المخاطر . وقد كان انتظارى للمخاطر أقل ما أضيق به فى هذه الآونة فقد كانت الشكوك الأخرى التى تدور بى أعظم مما أحتمل فأنا لا أجد الراحة حتى فى الساعات الأخيرة من النهار .

وحين تركت المسز جروز بعد أن كشفت لهـا الأمور جميعها عدت بطبيعة الحال الى نفسى واصلة بين الداء والدواء ، ذلك الدواء الذى أحسه فى شخصيتها الحلوة والذى تتسال حلاوته الى نفسى كالنبع الصافى فأحرص على اصطفاقه وتدفقه لم يردنى عن التذاذه شىء حتى الآن . خرجت فى صـحبة فلورا التى راحت تضع اصبعها الصغيرة على الموضوع الذى كنت أفكر فيه فهى تنظر الىّ فى تأمل حلو ، ثم ما لبث أن وثب الى ذهنها أننى كنت أصرخ مع أننى كنت أظن أن قسمات وجهى المعبسة قد انفرجت ، فاننى أستطيع أن أستعيد مرحى الى حين عندما ألتقى بهذا العطف العميق الذى لا يزايل صاحبتى أبدا . رحت أتوغل فى هذه الأعماق الزرقاء التى

تطالعنى من عينى الطفلة وألتذ البراءة فيهما ، انها حيلة ساذجة لاستدعاء الراحة أترانى كنت ملتذة حقا أم أننى كنت متشائمة على أية حال ؟ اننى أفضل تأجيل التفكير فى هذا الأمر وتأجيل حيرتى فيه أيضا ، وأنا لا أؤجله لمجرد رغبتى فى ذلك ولكن لأننى أريد أن أقول للمسز جروز كما قلت لها مرارا اننا وهذه الوجوه الصغيرة تحيا فى أجوائنا ، تشيع الراحة فى قلوبنا ويشع محياهما فى أعيننا ، فان كل شىء سيسقط الى الأرض الا البراءة والجمال فيهما ، وانه من المؤسف أن أضطر الى اعادة هذا الحديث عن الجمال والبراءة فى الأطفال كلما أردت أن أضع قرارا نهائيا ، وعلى شاطىء البحيرة من بعد الظهيرة ، قمت بمعجزة بما أظهرته من ثبات وهدوء يؤسفنى أن أضطر الى تذكر هذا الموقف ثانية ، وأستعيد كيف طالعنى كطيف من الابهام ، كانت صلتى بالأطفال قد اتخذت صيغة العادة ، وانه من المؤسف أيضا أن أعود الى بحث هذه الصلة مرة أخرى ، وقد دعا الى ذلك أن الطفلة قد رأت الشبح الزائر فى نفس الوضوح الذى أرى به المسز جروز ، ولكنها مع ذلك راحت تحاول اقناعى انها لم تر شيئا ، كما راحت تحاول فى نفس الوقت أن تعرف ان كنت أنا قد رأيت الشبح أم لا . باذلة جهدها أن تصرف تفكيرى عن هذا

الأمر فهى تزيد حركتها وتغالى فى لعبها وغنائها ، وتفرط فى الشقشقة .

ولولا أننى انغمست فى هذا الاستعراض لكنت قد فقدت بعض الهدوء الذى ما زلت أحتفظ به ، ولكنت عاجزة عن أن أؤكد لصديقتى أنى لم أخدع نفسى ، وهذا فى ذاته شىء جميل فى نظرى .

كنت خليقة ، تحت ضغط الظروف وازاء اليأس الذى يطالعنى أو ذلك الشعور الذى لا أستطيع تعريفه ، كنت خليقة أن أقدح كل ذكائى ، فملت قليلا الى جانب الجدار وراحت تقص شيئا فشيئا تحت وابل من الحاحى ، فقصت الشىء الكثير . ولكن نقطة واحدة فى حديثنا انحرفت عن مكانها فأحسست بها فى انحرافها كأنها طائر انفصل عن سربه . وتذكرت بهذه المناسبة ذلك البيت الهادىء . وذلك التفكير العميق الذى يركزه فى الخطر المحدق بنا ونحن نرقبه . وأحسست أن لابد لى أن أعرف الأمر جميعه . وانى أذكر نفسى وأنا أقول اننى لا أصدق أن شيئا فى العالم يبلغ هذا الرعب الذى نلقاه . لا يا عزيزتى .. اننى واثقة أن شيئا فى العالم لا يبلغ هذا الرعب ، وان كنت أعرف لذكرت ما أعرفه الآن ، دون أن أخفى عنك خافية مهما تكن ضئيلة ، ما الذى

كان يدور بذهنك حين كنا متألمين قبل أن يأتى ميلز من المدرسة .

لقد أنبأتك حينذاك وألححت عليك انه لم يكن سيئا للغاية . ولقد راقبته فى هذه الأسابيع فلم أر عليه سوءا .

وهأنذا قد عشت معه فيها وراقبته عن كثب .

لقد وجدته مزيجا من الطيبة واللطف .

وهكذا كنت محقة حين ادعيت أنه طيب ما دمت لم ترى عليه سوءا . فأى أمر اذا لاحظته عليه ينقض ما نعرفه عنه ؟ !.

كان السؤال صريحا ، فما كان الهزل فى طبيعتنا ، وعلى أى حال فقد استطعت أن أصل الى الجواب قبل أن نفترق فى الشروق الأول للقمر ، وما كان يشغل صديقتى الا ما يشغلنى أنا .

وما كان ذلك الا أن كوينت والطفل ظلا على صلة وثيقة مدة سبعة أشهر ، وكان طبيعيا أن تكون مثل هذه الصلة محل انتقاد . بعد حديث صريح من المس جيسل اضطرت المسز جروز الى الابتعاد عن الأمر فقد أمرتها المس جيسل أن لا تتدخل فى مثل هذه الأمور ، ولكن المرأة الطيبة فاتحت ميلز الصغير فى الموضوع صراحة ، وأفهمته

أن كل انسان يحترم نفسه لابد له أن يعرف مكانه الجدير به فلا يعدوه .

وأحببت أنا أن أؤكد هذا المعنى فقلت :

— هل ذكرته أن كوينت لم يكن الا شخصا حقيرا .

— قد فعلت ما تقولين ، وكان جوابه واحدا لا يتغير : نعم انه حقير .

فصمتت هنيهة ثم سألت :

— ألم يذكر حديثك للكوينت .

— لا ، لم يفعل ذلك . فما كان يستطيع أن يفعل .

كانت المس جروز لا تزال تحاول اقناعى أن الطفـل لا يستطيع أن يبلغ كوينت شيئا .

واستطردت قائلة :

— انى واثقة كل الوثوق انه لم يبلغه . ولكنه كان ينكر أمورا معينة .

— أى أمور ؟

— عندما كانوا متلازمين ، كان كوينت يعامله وكأنه مؤدبه حين تتخذ المس جيسل مكان السيدة المدللة ، وقد

كان ذلك يبدو واضحا حينما يخرجان مع الطفل ويقضيان الساعات فى صحبته .

— فهل تدارك هو موقفه وأنكر ؟

وكانت منافقتها واضحة لدرجة أننى عدت أقول لها :

— أعتقد أنه كذاب .

وتمتمت المسز جروز قائلة :

— هيــه ..

ولم يكن ذلك ايماءة لا معنى لها ، او لم تسعفها بملحوظة أخــرى .

— أنت ترين على أية حال أن المس جيسل لا يعنيها الأمر مطلقا فهى لم تحاول منعه .

وتريثت بعض الشىء وقلت :

— ألم يسوغ تصرفاته ؟

وأطرقت ثانية لقولى هذا ثم قالت :

— لا . انه لم يتحدث عن ذلك أبدا .

— ألم يذكرها أبدا عندما كان يذكر كوينت .

واحمر وجهها بعض الشىء عندما تبينت ما أهدف اليه من حديثى وقالت :

— نعم ، لم يبد منه شيء على الاطلاق ، لقد أنكر ، أنكر تماما .

يا الهى لقد اعتصرتها فعرفت ما عندها .

— اذن فقد أدركت أنه كان يعلم ما بين التعيسين .

وصاحت المسكينة وهى تقول :

— لا أدرى .. لا أدرى .

وأجبت :

— بل انك تعلمين أيها الشيء العزيز ، الا أنك لا تملكين جرأة التفكير العنيفة التى أملكها وما تزالين تتسترين خلف الحياء والتواضع ، والرقة ، حتى لقد كنت فى الماضى تجمعين معلوماتك ولكن فى سكون وصمت ، فأكسبك هذا بؤسا الا أننى سأنتزع عنك معلوماتك وبؤسك . ان شيئا ما فى الغلام كان يجعله يكتم الأمر كتمانا خفيا .

— انه لم يكن قادرا على كتمان ..

— .. الحقيقة عنك .. انى أجرؤ على هذا القول .

وأخذت أفكر فى الأمر ثم قلت :

— ولكن الى أى مدى وصلا بالغلام .

وقالت المسز جروز فى استحياء :

— ما أظنهما وصلا الى شىء غير كريم .

— الآن أنا لا أعجب مما كنت عليه يوم وصل خطاب المدرسة .

واستعادت المسز جروز بعض طبيعتها وهى تقول :

— أشك أننى كنت مضطربة مثلك ، فلو فرضنا أنه كان يمثل السوء حينذاك فكيف تأتَى له أن يكون كملاك الآن ؟

— نعم ، أنت محقة ، كيف كان شيطانا فى المدرسة .. كيف .. كيف كان كذلك .

وقلت فى ألم :

— حسنا .. عليك أن تعرض الأمر جميعه علىّ ثانية ، والا فلن أستطيع أن أخلص برأى قبل أيام .. ما عليك الا أن تقصى الأمر ثانية .

وصمت حتى لقد دهشت صديقتى وأنا أقول :

— ان هناك طرقا لا أستطيع أن أرودها فى الوقت الحاضر .

وفى نفس الوقت عدت بها الى أول الحديث حول زلة الصبى العابرة .

— اذا اعتبرنا كوينت فى ذلك الوقت الذى تتحدثين عنه مخلوقا دنيئا بلا انسانية أيسمح لك هذا أن تغفرى للصبى زلته ، اذا فعلت فانى مضطرة أن أجعلك شريكة لهم .

— أما كنت تغفرين أنت للصبى زلته ؟

— بلى ..

ثم رحنا ندير بيننا حديثا آخر فيه تسلية ، ثم عدت الى حديثى الأول :

— على كل حال ، لقد غفرت له كل ما ارتكبه وهو فى صحبة الرجل .

— لقد كانت الآنسة فلورا فى صحبة المرأة .. لقد كان كل شىء مهيأ لهم !

وارتحت لما تقول ، فما كنت لأمنع هذه المسرحية أن تتم فصولا أو أمنع نفسى أن ألهو بما يجرى حولى ، لو كنت مكان المسز جروز .

اعتبرت نفسى قد نجحت فى أن أحصل على هذه الذكريات المتراكمة فى ذهن المسز جروز ، حتى لم أعد فى حاجة الى ضياء

جديد يجلوها لى ، لم أعد فى حاجة الا لملحوظة سألقيها الى المسز جروز .

— ان كذب الغلام وتوقحه هو أقل ما يمكن أن ينتظر منه . انى مضطرة أن أشدد من الرقابة عليه .

وقد أخجلنى أن أرى فى وجه محدثى الى أى مدى بعيد كانت تغفر للصبى زلاته ، حتى لقد أثارت طيبتها عطفى عليها . أحسست بشعورى هذا وهى تتركنى عند باب غرفة الدراسة قائلة :

— أنت واثقة أنك لا تدينينه ؟

— انى أدينه بأنه يخفى عنى علاقة معينة ، ولكننى لا أدينه بشىء آخر الى أن يتبين ما يخفى عنى .

وقبل أن تقفل آخر باب يؤدى الى الممر قلت :

— ما علىّ الا أن أنتظر .

الفصل التاسع

وانتظرت .. وانتظرت .. وكلما مرت الأيام أخذت معها شيئا من الرعب الذى كان يغشانى — وقليل من هاته الأيام كانت تمر دون أن أكسب جديدة من المعلومات عن تلميذى ، كانت الأيام كافية لأن أضيف الى خيالى الحزين بل الى ذكرياتى ألوانا تتجدد كل ساعة عن الطفلين . لقد تحدثت عن استسلامى الكامل لوداعة الطفولة فيهما ، وقد كان أمرا أحب أن أنميه فى نفسى دائما ، وقد سرنى أننى كنت أنميه فى نفسى وفى نفس الطفلين . وقد كان أعجب ما لقينى هو ذلك الجهد الذى بذلته فى مصارعة الخصال الجديدة التى كنت أكتشفها فى الطفلين ولولا أننى أصبت بعض النجاح فى صراعى هذا لأصبح الأمر عسيرا على العلاج . ولقد كنت أعجب كيف كان تلميذاى يتحملان أن تدور بذهنى هذه الأفكار التى أعرفها عنهما . وقد كانت الظروف تجعل من هذه الأفكار عنهما شيئا أكثر جدارة بالاهتمام . وما كان جهلهما بأنى أعرف عنهما ما أعرف ليعيننى كثيرا فى الأمر .

فانه ان تبلغ الأمور أقصى غايات السـوء ويشوب براءة الطفلين غشاوة من شك فما كان هذا ليكلفنى الا مزيدا من العناية والمخاطرة . كانت هناك لحظات أرانى فيها مدفوعة أن أمسك بهما فى ذراعى واحتضنهما بقوة الى صـدرى ، وعند ما كنت أفعل أعجب من أمرى وأقول لنفسى « ماذا تراهما قائلين ان هما عرفا ما بنفسى » أليست هـذه خيانة لثقتى فى الطفلين ؟ هى خيانة لا شك ، ولكن الى أى غور أنا موغلة فى هذه الخيانة .. لا أدرى . ولكننى ما زلت أحس بتلك الساعات الهانئة التى كنت أتمتع فيها بصحبة الطفلين الحبيبين . ولو انها ساعات كان يخيم عليها شعورى بأننى أدرس أمرهما . ويتخللها فى نفسى بعض الشك ، متجاهلة مقدار حبى لهما ، ويصاحب هذا الشك عجبى من تلك الأمور التى تبدو منهما بعض الأحيان وكأنهما جزء من استعراض .

لقد كانا فى تلك الآونة مشغوفين بى الى حد بعيد ، وقد أدركت فيما بعد أنه لا شىء أقوى لدى الطفل الذى تعود الانكسار من استجابته لمن تعتنى بأمره . لقد كانا يبالغان فى مديحى الى أقصى حد . وقد كنت أرتاح لمديحهما ويهدأ له مضطربى . فقد كان يخيل لى أحيانا أن الأمر بيننا سائر فى طريق طبيعى لا شذوذ فيه ولا دراسـة منى لأخلاقهما .

فما أظنهما حاولا أن يرضيا أحـدا قبلى كما كانا يحاولان ارضائى . وذلك مع اقبالهما الكامل على الدروس ، والأمر الذى كان يسر المسز جروز ويدهشها هو طريقتى فى تسلية الطفلين — فقد كنا نردد ما ترويه من قصص ومحفوظات ونقفز على أكتافها متنكرين فى أشكال الحيوانات أو فى زى شخصيات من التاريخ . وقد كان يدهشها أكثر من ذلك جميعا حفظنا لبعض المقطوعات حفظا تاما وترديدنا لها فى مهارة . ما أظننى بحاجة الى ذكر تعليقاتى الخاصة . فكلها فجة ، وان تكن قد استنفدت منى الساعات الطوال . والمهم أن الطفلين كانا ييسران على الأمور فلا يلقيان أمامى عقبة تؤودنى .

فقد كانا يتمتعان بملكة خاصة يستطيعان بها أن يبدءا عملهما فى حيوية ما تزال تنمو ما امتد بهما العمل . وما يزالان يقومان بما أكلفهما من أعمال وكأنهما يحبان هذه الأعمال مهما تكن شاقة . لقد كانا مسرورين بهذه الملكة التى يتمتعان بها ، كما أنهما كان يتمتعان بذاكرة رائعة . كانا ينظران الىّ فى انعام كأنما هما نمور رومانية أو بعض شخصيات من روايات شكسبير، أو كفلكى يرقب السماء ، أو كربان سفينة يلقى الى الأفق نظرة متفحصة . وكانت هذه هى الحالة الفريدة

التى قد يكون لها صلة بالحقيقة التى أحار الآن فى تفسيرها للقارىء . فاننى أريد الآن أن أنقل ميلز من هذه المدرسة التى اشتهر بها فساده الى مدرسة أخرى . وما أذكره الآن أننى كنت مكتفية فى ذلك الحين بألا أعرض الموضوع للمناقشة . وكان هذا الاكتفاء ينبعث من مخايل الذكاء التى كانت تلازمه على الدوام . كان ذكيا لدرجة أننى كنت أرى نفسى أقل من مستواه ، كان ذكيا بالنسبة لابن قسيسة مثلى كانت خليقة أن تفسد عليه ذكاءه . كان أعجب ما فى خيوط تفكيرى العميق وأكثرها اشراقا هو ذلك الشعور الذى كان يستولى علىّ . ذلك الشعور الذى ان جرؤت على ايضاحه قلت انه كان تحت تأثير معين يسيطر على حياته العقلية ، فيدفعه الى هذا السبق .

لو أمكننى أن أقبل التفكير فى تأجيل الدراسة المنتظمة لهذا الغلام لهان علىّ أن أقبل أن يطرده من المدرسة مدرس فيها .

ودعنى أضف اننى الآن فى بؤرة الدوامة تدور حولى الحوادث فلا أتشمم رائحتها من بعد .

اننا نعيش فى ضجة من الموسيقى والعواطف والنجاح

والمواقف التمثيلية . وكانت حاسة الموسيقى فى كلا الطفلين غـاية فى الرهافة . ولكن أكبر الطفلين كان أكثر قدرة على استيعاب الموسيقى واعادتها . فكانت الموسيقى التى تنبعث من بيانو غرفة الدرس أشبه ما تكون بالخيالات والرؤى ، حتى اذا انتهت الموسيقى خيل اليك أن قصصا من الخيـال تنسج خيوطها فى أنحاء الغرفة ، تتابع الواحدة منها بعد الأخرى فى فرح جذلان متجددة فى كل حين . لقد كان لى اخوة أنا أيضا وما أكشف سرا ان قلت ان الفتيات فيهم كن أشبه شىء بالجوارى لاخوانهن الغامان . ولكن الشىء الذى يفوق كل تصور أن يوجد فى العالم مثل هذا الغلام الذى يتمتع فى سنه الباكرة هذه بكل هاته السجايا جامعا الى الجمال الآخذ هذا الذكاء اللماح . وقد كان الفتى والفتاة على درجة واحدة . وما أظننى أراعى الدقة اذا قلت انهما لم يتشاجرا أو يشكو أحد منهما وقد يكون فى ذلك كمالا لحلاوة الطفولة منهما . وفى بعض الأحيان حين كان يطيب لى أن أرقبهما خفية كنت ألحظ بينهما نوعا من التفاهم الذى يجعل الواحد منهما يترك الغرفة للآخر اذا شاء هذا الآخر أن يخلو الىّ ، انه نوع من الأشياء الدقيقة التى تستلزمها الكياسة . فاذا شاء الطفلان أن يمارسا مرحهما معى فهما

حينئذ أبعد ما يكونان عن الخشونة . فان ألمت بهما فما هى الا هنيهة وتنقشع عنهما هذه الخشونة .

وجدت نفسى متأخرة عن مجرى الحوادث . وكان لابد لى أن أقتحم هذه الحوادث التى تدور فى بلاى . وكان لابد لى أيضا أن أجدد عزمى وثقتى وأسترجع ما عانيته من قبل — وهكذا دفعت نفسى الى الطريق أقطعه حتى النهاية . وحلت بى ساعة مفاجئة كلما استعدت ذكراها لاح لى عملى كله وكأنما هو قطعة خالصة من الشقاء . ولكنى على الأقل وصلت الى جذور هذا الشقاء . وقد كان التقدم هو أقوى الوسائل .

فى احدى الأمسيات لم يكن أمامى ما أفعله ، أحسست بشعور يماثل ذلك الذى ألم بى يوم وصلت الى بلاى وان كان أهون منه بعض الشىء . ولو لم أكن فى بلاى تلك الأمسية لكان هذا الشعور أكثر هوانا . لم أكن ذهبت الى مضجعى وانما جلست أقرأ على ضوء شمعتين . فقد كانت فى بلاى حجرة مليئة بكتب القصة التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، ولم تكتب لها الشهرة الواسعة . وقد وصلت هذه الكتب الى ركنى المنعزل وراقت لشبابى المحب للاستطلاع وأذكر أن الكتاب الذى كنت أقرؤه هو قصة اميليا لمؤلفها

فيلدنج ، وأذكر أيضا اننى كنت صاحية تماما . كما أذكر أننى كنت فى ساعة متأخرة من الليل وأننى كنت راغبة عن النظر الى ساعتى . وأذكر لحظة اذ ان الستارة كانت مسدلة دون وجه فاورا تخفى وراءه راحة الطفولة . وعلى الجملة أذكر أننى برغم انهماكى فى قراءة مؤلفى وجدت نفسى -- وأنا أقلب احدى الصفحات مأخوذة بتأثير الكتاب القوى — أنظر مباشرة الى باب الغرفة . ومرت لحظة تسمعت فيها ذاكرة أننى فى يوم حضورى سمعت أصوات أقدام تمشى فى المنزل ، ولاحظت الأنفاس الهادئة التى تتحرك تأتى وراء النافذة . وقد كان أمرا يستحق الاعجاب تركت له الكتاب ، ووقفت وتناولت شمعة وخرجت مباشرة من الغرفة ، ثم أغلقت الباب من خلفى بهدوء .

لا أستطيع الآن أن أعرف من أين جاءنى هذا الاصرار أو ما الذى دفعنى الى ما فعلت — قطعت الممشى ممسكة شمعتى مرتفعة بيدى ، حتى أصبحت على مقربة من الشباك الذى يطل على السلم . وعندئذ أحسست بأمـور ثلاثة ، وقعت جميعها فى نفس اللحظة ، وان كانت وقعت متتابعة . توهجت شمعتى هنيهة ثم انطفأت ، وكانت الخيوط الأولى من الفجر تبعث ضوءها فأغنتنى عن ضوء الشمعة ، واستطعت

أن ألمح شبحا على السلم . وقعت الحـوادث متتابعة ولكن لم يفصل احداها عن الأخرى الا ثوان معدودات .

جمدت فى مكانى حين وجدت نفسى أمام كوينت للمرة الثالثة . كان الشبح قد بلغ منتصف الطريق ، وكان فى مكانه أقرب ما يكون الى النافذة ، حيث جمد فى مكانه ، وثبتنى فى مكانى كما جعلنى أثبت فى مقابلته الأولى عند البرج . كان يعرفنى كما كنت أعرفه . وفى ضوء الفجر الأول الذى يشع على زجاج النافذة العالى ويلقى ضياءه على لمعة السلم ، واجه كل منا الآخر فى انعام . تراءى لى فى هذه اللحظة مخلوقا مرهوبا كريها . ولم يكن ذلك أعجب ما فى الأمر ، وانما الأعجب هو ما سيعرض لى فى وقت آخر . فى ذلك الوقت الذى استطعت فيه أن أتخلص من كرهى ورعبى . كنت متهيئة بكل حواسى للقائه .

كان الاضطراب يعصف بى بعد هذه اللحظة العجيبة ، ولكن أحمد الله أننى لم أكن خائفة ، وقد عرف أننى لا أخشاه ووجدت نفسى فى نهاية هـذه اللحظة منتبهة الى جرأتى . وأحسست بثقة عنيفة تجتاحنى حتى خيل لى أننى اذا ثبت فى مكانى هنيهة أمكننى أن أتعرف عليه تماما . وفى خلال

هذه اللحظة خيل لى أننى فى لقاء حقيقى مع شخص كريه ، كريه لمجرد أنه انسان ، انسان ألقاه فى بيت نائم كما لو كان عدوا مغامرا مجرما ، وأطبق الصمت على نظرتنا الطويلة المحملقة ، وقد تقاربنا حتى مسنى الفزع الآخذ . فقد كان الأمر جميعه غير طبيعى . فلو أننى لقيت قاتلا فى مثل هـذا المكان وفى مثل هذه الساعة لكنا — على الأقل — تحادثنا ، أو سرى شىء من الحياة فى لقائنا ، فيتحرك أحدنا . واستطالت اللحظة حتى أصبحت أشك فى أننى ما زلت أحيا . لا أستطيع أن أذكر ما تبع هذه اللحظة الا اذا قلت ان الصمت قد أتبع صمتا ، ذلك الصمت الذى كان امتحانا لقوتى ، والذى ظل مطبقا حتى أخذ الشبح يتلاشى من أمامى ، وفى هدأة هـذا الصمت رأيت الشبح يستدير عنى ، وخيل لى وهو مستدير أن هذا الشخص الحقير انما يستدير لينفذ أمرا صدر اليه كسابق العهد به .

وظل نظرى مثبتا على ظهره فبدا أحدب أبشع ما يكون الحدب . وقصد مباشرة الى نهاية السلم ثم غاص فى الظلمة واختفى عند الانحناءة الأولى .

الفصل العاشر

ظللت برهة على أعلى السلم ، ولكننى كنت مدركة أن الضيف قد ذهب . ثم عدت أدراجى الى حجرتى وراعنى أن رأيت على ضوء الشمعة التى تركتها فراش فلورا خاليا ، فتلقفت أنفاسى بصعوبة من الفزع ، ولم أستطع أن أفيق الى الحقيقة الماثلة أمامى قبل دقائق ، فاندفعت الى الفراش الذى كنت قد تركتها فيه مستلقية والذى بدت فيه الستائر البيضاء وقد شدت الى أمـــام لتعمى حقيقة خلو الفراش ، ورأيت اللحاف الحريرى والملاءات ثائرة فى فوضى وسوء نظام ، غير أننى ما كدت أخطو خطوة حتى عادنى الهدوء ،وقد جاوب صوت خطوتى صوت آخـــر ، ولاحظت اهتزازا فى ستارة النافذة ورأيت الطفلة التى كانت مختبئة تظهر متوردة الوجه من الجانب الآخر للستارة وقد وقفت هنالك فى كثير من البراءة وقليل من الملابس ، وقد أشرب جسمها حمرة وبدت خصائل شعرها فى لون الذهب ولم أستشعر فى يوم ما

مثل هذا العجز الذى أحسسته حيالها حين خاطبتنى معاتبة : « أيتها الشقية ، أين كنت ؟» ولم ألق هجومها الشرس بمثله بل وجدت نفسى كالمتهم الذى يستجوب ويجد نفسه مضطرا لتبرير تصرفاته ، ولكنها قامت عنى بالتبرير فى بساطة شائقة حبيبة ، لقد عرفت فجأة حين كانت مستلقية أنى تركت الحجرة فقفزت لترى ماذا حدث لى . أشاع ظهورها السرور فى نفسى فعدت الى الجاوس على الكرسى وقد شعرت لأول مرة أنى سأفقد الوعى وشيكا ، فربتت كتفى وألقت بنفسها الى ركبتى وانسكب ضوء الشمعة على وجهها الذى لم تزايله حمرة ظلت شائعة فيه من أثر النوم ، أذكر أننى أغمضت عينى لحظة مستسلمة وكأنما كنت مقدمة على شىء جميل يشع من زرقة عينيها فقلت « لقد كنت تبحثين عنى خارج النافذة فهل ظننت أنى أسير فى الخارج ؟» فأجابت وقد ابيض وجهها خوفا على بصورة لم أرها عليها من قبل « كلا ولكنى ظننت أن شخصا آخر كان يمشى . » فقلت لها وأنا لا أدرى كيف كنت أبدو حين تكلمت : « وهل رأيت أحدا ؟ » .

— لم أر أحدا . .

هكذا أجابت فى شىء من الامتعاض ولكن فى شىء من

المذوبة كان يترقرق فى طريقة نفيها ، وكنت متوفزة الأعصاب فاعتقدت اعتقادا راسخا انها تكذب فى قولها . وعدت الى أعماقى أحاول أن أجد تعليلا لتصرفها . ولقد سيطر على تفكيرى تعليل معين فتشبثت بفتاتى محاولة أن أنفى عن ذهنى هذا التعليل الذى يلح على ، ومن عجب انها استسلمت لتشبثى دون أن تصدر عنها أية علامة على الخوف . لماذا لا أصارحها فى الحال فينتهى كل شىء ؟ هل القى بافكارى فى وجهها الجميل الوضىء « انك تعلمين ما تفعلين وتظنين أنى أصدق ما تقولين ، فلماذا لا تصارحيننى بحقيقة الأمر حتى نتمكن على الأقل من أن نعيش معا فى هذا السر ولعلنا نهتدى وسط هذه الأقدار الغريبة الى معرفة المكان الذى نحن فيه ومعنى وجودنا فى هذا المكان » . غير أن هذا الاستعطاف ما كان ليصيب أذنا واعية منها ، ولو أنى استطعت قوله لوفرت على نفسى الجهد الكثير ، غير أنى لم أستسلم،بل نهضت على قدمى من جديد ونظرت الى فراشها واتخذت فى موقفى طريقا وسطا يائسا :

— ولماذا أسدلت الستائر ؟ أأردت أن توهمينى أنك ما زلت فى الفراش ؟

فتفكرت فلورا فى اشراق ثم قالت وقد تلألأت على شفتيها ابتسامتها الملائكية :

— لأنى لم أشأ أن أطالعك بالهلع .

— وماذا اذا كنت قد خرجت كما ظننت ؟

فراحت فلورا تخفى حيرة تمور فى نفسها ، وأدارت عينها الى لهب الشمعة وكأنما الأمر لا يعنيها فى شىء ، ثم أجابت :

— كنت أعلم أنك عائدة ، وقد عدت .

وبعد هنيهة عادت الى الفراش ، فأصبح لدى منفسح من الوقت لأفكر ، ولم تشأ فلورا أن تخلى سبيل يدى بل ظلت متشبثة بها حتى لقد كدت أن أجلس فوقها لأبين لها أنى مدركة تماما مدى الأهمية التى تنطوى عليها عودتى اليها .

ولك أن تتصور لون الليالى التى قضيتها منذ هذه اللحظة فلقد كنت لا أنى عن السهر حتى لا أدرى متى ينتهى بى السهر وكنت أترقب اللحظات التى أثق فيها أن رفيقة حجرتى نائمة لا شك ، وعندئذ أتسلل الى الخارج بلا صوت وأقطع الممر ، بل لقد قصدت الى المكان الذى التقيت فيه وكوينت آخر لقاء . ولكنى لم أعثر عليه هناك مرة أخرى ، ولعلى أستطيع القول انى لم أره مرة أخرى فى المنزل ، غير أن مغامرة من

نوع آخر على الدرج فاتنى ذكرها . فلقد نظرت من أعلى الدرج فلمحت امرأة جالسة على احدى الدرجات الدنيا وقد أدارت وجهها عنى ، وأحنت ظهرها نصف انحناءة ، وكان رأسها يوحى بالهم والحزن ، وكانت تمسكه بكلتا يديها ، غير أنه لم تمض هنيهة حتى اختفت دون أن تدير بصرها الى ورغم ذلك فقد تخيلت وجههـا الرهيب وتساءلت « ترى لو كنت بأسفل الدرج بدلا من أعلاه هل كانت تطاوعنى أعصابى على الصعود كما حدث لى مع كوينت منذ عهـد قريب » .

لقد كنت لا أزال فى حاجة ماسّة الى متانة الأعصاب . ففى الليلة الحادية عشرة بعد مقابلتى الأخيرة لهذا السيد حدث انذار مفاجىء أصابنى بأقوى صدمة ، كان ذلك على التحديد فى الليلة الأولى من هذه السلسلة من الليالى ، وكان الأرق قد أخذ منى مأخذه فحسبت أنى أستطيع النـوم اذا أنا استلقيت فى الساعة التى تعودت النوم فيها ، فنمت فى الحال حتى حوالى الساعة الواحدة ، كما تبينت فيما بعد ، ولكنى حين أفقت من نومى كنت جالسة فى يقظة تامة ، وكأنما يد قد هزتنى هزا . كنت قد تركت الشمعة موقدة فاذا هى مطفأة ، ومرت بى برهة اعتقدت فيها أن فلورا هى التى

أطفأتها ، فنهضت على قدمى وشخصت فى الظلام الى مخدعها فلم أجدها فيه ، فنظرت الى النافذة فاستبان الأمـــر لى ، واشتعل عود ثقاب فاكتملت الصورة فى ذهنى .

لقد استيقظت الطفلة مرة أخرى ، وفى هذه المرة أطفأت الشمعة وعادت تختبىء وراء الستائر وترنو الى مترقبة فى الظلام . فأقنعت نفسى أنها رأت فى هذه المرة مالم يسبق لها رؤيته ، وقد أدركت هذا حين رأيتها لم تأبه بى وأنا أعيـــد اشعال الشمعة كما لم تأبه بى وأنا أسرع الى ارتداء المعطف ؛ لقد كانت مختبئة ، مستغرقة الفكر حتى لقد انفتح الشباك الذى ترتكز عليه فلم تفعل شيئا . وأعانها على ثباتها أن القمر كان مكتملا هادئا مما جعلنى أنتهى الى قرارى فى سرعة حاسمة .

لقد كانت وجها لوجه أمام الشبح الذى التقينا به عنـــد البحيرة ، وهى الآن تستطيع التفاهم معه كما لم تـــكن فى المرة الأولى . وما كان يعنينى أن أصل — دون ازعاجها — من الممر الى نافذة أخرى تطل على نفس المكان . وبلغت الباب دون أن تسمعنى وخرجت منه وأقفلته وأصغيت أتسمع أن يصدر عنها صوت . وبينما كنت واقفة فى الممر كانت عيناى ترقبان باب أخيها الذى لا يبعد عن موقفى غير خطوات عشر ،

وقد أثار هـذا البـاب بى -- على نحو غامض — ذلك الاحساس العجيب الذى جعلت له الاغراء اسما ، ماذا على ان أنا ولجت هذا الباب مباشرة ، وذهبت الى نافذة الطفل ؛ ماذا على اذا أنا جازفت باطلاعه على ما دفعنى الى ذلك رغم حداثة سنه ، وما قد يحدثه ذلك له من ارتباك ؟ انى بذلك خليقة بأن أكشف بشجاعتى مالا يزال مستترا من السر الغامض . استولت على هذه الفكرة ، فقصدت الى الباب ، وتوقفت برهة ، وجعلت أتسمع على نحو تجفوه الطبيعة ، وأصور لنفسى ذلك الأمر الرهيب الذى يمكن أن يطالعنى . ترى أيكون فراشه هو الآخر خاليا ، بينما هو — شـأن أخته — يتخفى أو يرقب شيئا ما .. وأطبقت لحظة من لحظات الصمت العميق خار بعدها اندفاعى .

لقد كان هادئا ، لعله لا يعرف شيئا ، والمجازفة رهيبة ، فانصرفت عن الباب .

كان هناك فى الحديقة شخص .. بل هيكل .. يعبث مترقبا لشىء ، انه الزائر الذى شغلت به فلورا .

عدت الى التردد ، لكن ترددى فى هذه المرة كان لأسباب أخرى وما هى الا ثوان حتى زايلنى هذا التردد لانتهى الى قرار .

كانت هنالك حجرات خالية فى بلاى ، ولم يكن على الا أن أختار أنسب هذه الحجرات ، وسرعان ما تبين لى أن

الحجرة السفلى هى أنسبها ، وقد كانت أعلى كثيرا من مستوى الحدائق ، وتقع على الناحية الصخرية للمنزل ، تلك التى أطلق عليها اسم البرج .

وكانت حجرة واسعة مربعة ، مهيأة للنوم بأثاث فخم ، غير أن حجمها الكبير الضخم لم يجعل منها حجرة مريحة للسكن ، وان كانت مسز جروز قد نسقتها تنسيقا رائعا ، وكنت معجبة بهذه الحجرة ، وكنت أعرف سبيلى اذا أنا سرت فيها ، فما علىّ الا أن أتغلب على شعورى بظلامها ورطوبتها ثم أسلك طريقى فيها أمما وأفتح نوافذها فى هدوء مستكين. وقد فعلت . فتحت الزجاج دون أن يصدر عنه صوت فتبينت أنى أطل على الجهة التى أريد ، ثم رأيت شيئا آخر . كان القمر قد بدد الظلمة فاستبان لى على الخضرة شخص يتراءى على البعد صغيرا ، وكان يقف هناك بلا حراك ، وكأنه معجب بما يرى ، وكان يلقى بنظره الى المكان الذى ظهرت فيه . ولست أعنى بذلك أنه كان ينظر الىّ مباشرة ، ولكنى أعتقد أنه كان يتطلع الى شىء أعلى منى . وأصبح من الواضح أن ثمة شخصا آخر فى أعلى البرج . لكن الشخص الذى رأيته على منفسح الحديقة لم يكن هو الشخص الذى خلته فهرعت الى لقائه . لم يكن الشخص الواقف فى الحديقة الا ميلز المسكين ذاته .

الفصل الحادى عشر

لم أتحدث الى مسز جروز الا فى وقت متأخر من اليوم التالى . فانى كنت قد صممت أن يظل تلميذاى دائما على مرأى منى ، الأمر الذى جعل من العسير علىّ أن أنفرد بمسز جروز .. وكان مما يزيد الأمر عسرا أن كلا منا كانت تشعر بأنه من الحتم علينا ألاّ يوحى سلوكنا الى الخدم أو الى التلميذين بوجود اضطراب خبىء أو مناقشات تستخفى عنهم . وقد كان لى من مظهرها الناعم الأنيس خير أمان فى هذا الشأن . فلم يكن وجهها الغض يشى للآخرين بأيسر قدر من أسرارنا الرهيبة . لقد كنت على ثقة أنها تثق فى كل ما ألقيه اليها ثقة كاملة ، ولولا ذلك لطالعنى من الشر مالا أدرى مدى هوله ، فما كنت بمطيقة أن أحمل هذا العبء وحدى .

لقد كانت مسز جروز مثالا رائعا لمن يتمتعون بنعمة فقدان الخيال ، فهى لا تجد فى طفلينا الصغيرين غير الجمال والدعة والهناءة والمهارة ، وهكذا أصبحت وهى لا تتصل

بمصادر متاعبى صلة مباشرة . ولو قد أصابتهما كارثة ورأتها رأى العين لانعكس ذلك على وجهها شحوبا .

كانت مسز جروز حين تفتح لهما ذراعيها البيضاوين ، وفى عينيها نظرة الجد تبدو وكأنما هى تحمد الله رحمته على ما بقى من حطامها . لقد أخذ بريق الاطمئنان والدعة من نفسها مكان الخيال وشطحاته . وكنت قد أخذت أقتنع على مرور الأيام هادئة بلا أحداث ظاهرة أنه يمكن للصغيرين أن يتحريا بنفسيهما الحقائق التى تحيط بهمـا . غير أن مسز جروز كانت ثائرة القلق من أثر القصة التى رواها سيدها . وقد بسطت الأمر لنفسى على النحو السليم التالى .. اننى أستطيع أن أمنع وجهى أن يشى بشىء من القصة . ولكن ذلك لن يمنعها أن تشعر بقلقى على أية حال .

وفى تلك الساعة التى أنا بصددها الآن كانت قد لحقت بى فى الشرفة الفسيحة بعد أن ألحفت عليها أن تفعل . وكان الصيف قد ولى فكانت الشمس حبيبة الى النفس .

وهناك جلسنا معا بينما كان الطفلان على بعد منا يسمح لنا باستدعائهما حين نشاء ، وكانا يسيران معا ذهابا وجيئة فى يسر واسترخاء بطىء على البساط الأخضر الذى يمتد دوننا

وكان الصبى — أثناء سيرهما — يقرأ قصة بصوت مرتفع بينما التفت ذراعه على أخته كأنما يريد أن يهنأ بقربها اليه . وكانت مسز جروز ترقبهما فى طمأنينة تشيع فى وجهها جميعا.

وحين بدأت القصة لمحت على وجهها شعورها بأنها تحس بتخلفها عنى فى الذكاء فقد نفضت اليها كيف تفوقت على آلامى ؛ وقد آمنت بما ألقى اليها ايمانا لا يشوبه ومض شك.

هكذا بدت لى حين بلغت من روايتى لأحداث المساء الى ما قاله لى ميلز فى ليلته البارحة حين رأيته فى هذه الساعة الموغلة فى الليل وذهبت لاحضاره من مكمنه بالحديقة .

فقد اخترت أن يكون ذهابى فى لحظتى تلك من الشباك الذى كنت أطل منه حتى لا أزعج بالمنزل أحدا . وقد أبنت للمسز جروز عن الأمل الذى شاع فى نفسى اذ ذاك حين ألهمت أن أواجه الصبى بالتحدى الصريح بعد أن أستدرجه الى المنزل .

ما كدت أظهر فى ضوء القمر على الشرفة الفسيحة حتى أقبل على من فوره . فأخذت يده دون أن أنبس بكلمة ، وسرت به عبر الظلام فصعد معى الدرج حيث سبق للكوينت

أن تعسس بحثا عنه ملهوفا على لقائه . واخترقنا الردهة حيث كنت أتسمع وأرتجف ، وبلغنا حجرته التى هجرها .

لم نتبادل أثناء السير كلمة واحدة ، وقد ملكنى العجب الآخذ ، ترى هل كان يهيم بعقله بحثا عن أمر سار يثير فيه غاية الدهش .

ان كان يفعل ، فان هذا سيرهق — لا شك — قدرته على الكذب . وشعرت حين ارتبك ارتباكا صريحا بنشوة النصر . فقد أصبحت بأيسر حيلة منى قادرة أن أبلغ منه ما أريد لنفسى أن أبلغ .

انه لن يستطيع بعد اليوم أن يتقن تمثيل دوره . فماذا عساه يرجو من تلك اللعبة . ولقد خفق قلبى عند هذا التساؤل الذى استدعى سؤالا آخر .. ماذا عساى أفيد من ذلك ؟ لقد واجهتنى لأول مرة كل المخاطر مجتمعة متشابكة ، تفد الى من هذا الحديث الرهيب الذى أفتحه . وانى لأذكر أننا حين اندفعنا الى حجرته الصغيرة التى لم ينم أحد فى فراشها مطلقا ، وقد أتاح الشباك المفتوح لضوء القمر أن يغمر المكان حتى لقد أغنانا عن اشعال أعواد الثقاب . انى لأذكر كيف تهاويت على حافة السرير تحت التفكير انه لابد

يعلم أنى الآن تحت رحمته ، وأن له أن يفعل كل ما بدا له ، يسانده كل ما أوتى من مهارة ؛ ما دمت أنا حريصة على ما جرى عليه العرف القديم من ازدراء من يكترث بالمخاوف والخرافات .

لقد كنت تحت رحمته فما فى ذلك شك ، فمن ينجينى منه الآن ، بل ومن منقذى من الموت اذا أنا تجاسرت فأشرت فى حديثى الى شىء على هذا القدر من الرهبة ؟ .. لا أحد . أحسست أننى سأعجز اذا أنا حاولت أن أنقل الى مسز جروز شعورى بهذه الهزة الهينة التى عرتنى عند لقائنا القصير فى الظلام والتى كانت تنطوى على بعض اعجاب . فكتمت أمـــرها .

كنت بطبيعة الحال غاية فى الرحمة والعطف ، فلم يسبق أن وضعت على كتفيه الصغيرتين يدين بمثل رقة هاتين اليدين اللتين أمسكته بهما أهدده ، بينما كنت مستندة الى السرير ؛ ولم يكن لى مناص من أن أسأله عما كان يفعل . وما زلت أذكر ابتسامته الرائعة ، وعينيه وقد شع فيهما صفاء رائع ، وأسنانه اللوامع وقد تألقت ومضا فى الظلام .

— اذا ذكرت لك السبب فهل تفهمين عنى ؟

كاد قلبى أن ينخلع .. أتراه مخبرى بالحقيقة ؟ لم أجد على شفتى كلمة تنطقانها غير أنى أجبت بتقلصات تلاحقت على قسمات وجهى لا تبين عن معنى واضح ، أما هو فكان الرقة جميعها .

وبينما كان رأسى ينتفض نحوه وقف هو ثمة أميرا رائعا كما لم يبد فى وقت من الأوقات ، حتى لقد سكبت وضاءته فى قلبى المهابة . وأخيرا قال :

— السبب هو أن أجعلك تفعلين ما فعلته الآن تماما .

— أفعل ماذا ؟

— لابأس أن تظنى بى الشر بعض الحين .

قالها فى مرح وطلاوة لن أنساهما ما حييت ، ولن أنسى كيف انحنى وقبلنى ، والتقيت به فى قلبه .

وحين كنت أحتويه بين ذراعى كان على أن أبذل غاية الجهد لأمتنع عن البكاء. لقد قال عن نفسه مالا يكاد يكشف عن خبىء الأمر . وألقيت نظرة سريعة على الحجرة وقلت :

— اذن فأنت لم تخلع ملابسك قط ؟

وكان منظره شائقا وهو يقول :

— لا .. لم أفعل .. بل كنت سهران أقرأ .

— ومتى نزلت ؟

— فى منتصف الليل .. فأنا شقى اذا أردت الشقاوة .

— أفهم ما تريد .. وهذا ممتع ، ولكن كيف وثقت أنى سأعرف ما يحدث .

— رتبت الأمر مع فلورا ، فقد كان عليها أن تستيقظ وتراقب .

— وهذا ما فعلته ، وكنت أنا من وقعت فى الشرك .

— انها أقلقتك لتشاهد ما كانت تشاهده وقد شهدته .

فقلت فى سرعة :

— بينما تعرضت أنت للموت فى هواء الليل البارد .

وكانت هذه المغامرة قد أضفت عليه اشراقا وتوردا وهو يرد بالايجاب سائلا :

— كيف كنت أستطيع عن غير هذا الطريق أن أبلغ هذا المكان من الشقاوة .

وبعد عناق آخر انتهى الحادث واللقاء . وقد أدركت حينذاك مدى ما ينطوى عليه قلبه من خير وطيبة رغم هذه الدعابة .

الفصل الثانى عشر

حين قبلت هذه الفكرة التى كونتها لنفسى عن ميلز فى مطلع الصباح استبان لى أننى لن أحظى برضا مسز جروز عن فكرتى ، فقد عزز ميلز شكى بملاحظة أبداها قبل أن نفترق . قلت لمسز جروز :

— ان الأمر كله يمكن تلخيصه فى كلمات حاسمة كل الحسم . لقد أراد أن يبين لى عن طيبته فقال وهو يفارقنى « انك تعلمين ماذا يمكن أن أفعل » ... انه يعلم علم اليقين ماذا يمكن أن يفعل ، وهذا هو ما أذاقهم بعضا منه فى المدرسة .

فصاحت صديقتى :

— يا الهى .. انك تغيرين فكرتك عنه .

— أنا لا أغيرها ، وانما أفكر . ان الطفلين يلتقيان بالشبحين . ولو أنك كنت فى احدى هذه الليالى الأخيرة مع أى من الطفلين لأدركت ذلك تمام الادراك . انى كلما راقبت

وتريثت كلما ازددت يقينا بأن صمتهما المنظم أقوى برهان لفكرتي ما لم يأت برهان آخر يدحضه . فكيف يتأتى لطفلين أن يطبقا على الصمت فلا يزل لسان واحد منهما ليشير الى أى من صديقيهما القديمين . وكيف يتأتى لميلز أن يمسك لسانه فلا يشير الى فصله من المدرسة . نعم .. فلنجلس هنا نرنو اليهما وقد يوسعاننا تظاهرا بغير الواقع . لكنهما حتى حين يتظاهران بالاستغراق فى حكاياتهما الخرافية فانهما يكونان فى الواقع مستغرقين فى رؤى الموتى الذين ردوا الى الحياة . انه لا يقرأ لها أنهما يتحدثان عن الأشباح . انهما يتحدثان عن أمر رهيب . وانى أهذى كمجنونة ومن عجب أنى لم أصبح مجنونة بعد ، ان ما رأيته كان كفيلا أن يصيبك أنت بالجنون . لكنه زادنى تبصرا بالموقف ، وجعلنى أرى ما لم أكن أراه .

ولا بد أن وضوح ماألقيه الى المسز جروز قد بدا رهيبا ، ولكن الصبيين الفاتنين اللذين كانا ضحية هذه الأحداث كانا يمشيان أمامنا ذهوبا وأوبة فى جمال وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر ، وكأنما أتاحا بذلك لصاحبتى أن ترى شيئا ، وقد شعرت بعمق ايمانها وهى تغمرهما بنظراتها قائلة :

— وماذا تكشف لك غير ذلك ؟

— تكشف لى من الأمور ما سرنى واستهوانى وان كان قد حيرنى وأرهقنى . جمالهما الملائكى ، وطيبتهما التى فاقت كل طيبة . انه خداع ، انه زور وبهتان .

— ممن .. أمن الصغيرين العزيزين ؟ .

— لم يزالا من الصغار الأعزاء ! ؟ نعم ! وان بدا ذلك جنونا .

وكأنما أزاح هذا القول عبئا كبيرا عن نفسى ، فأصبحت قادرة على المضى فيه ، فرحت أتعمق الأمر وأجمع أشتاته .

— انهما ليسا طيبين ، بل انهما غائبان . لقد كان من اليسير علينا أن نقيم معهما لأنهما يعيشان فى عالم خاص بهما ، انهما لا ينتميان الى .. لا ينتميان الينا . بل انهما ينتميان اليه واليها .. الى كوينت وهذه المرأة .

— الى كوينت وهذه المرأة ؟ ! فهما يبغيان لقاءهما .

وحينئذ بدا على مسز جروز أنها تتعمق نفسية الطفلين ثم استطردت :

— ولكن لماذا ؟ .

— حبا فى كل الشر الذى انطوى عليه الاثنان ، واستجابة للاغراء الذى يزجيه هذا الشر ، وحرصا على الأعمال الشيطانية . ان هذا هو ما يحدو الشبحين الى العودة .

— ولكن أحكام الطبيعة .. !

كذلك همست صاحبتى ، وكان التعجب عاديا ، لكنه كشف عن اقتناع عميق بالبرهان الذى سقته على ما أعتقد أنه الحقيقة .

ولم يكن هناك دليل عندى أقوى من موافقتها — وهى المجربة — على ما كشفته لهـا من أمر المحتالين المختالين . وقالت بعد أن صمتت برهة بدا عليها فيها أنها تستذكر أمرا:

— لقد كانا مجرمين ! ولكن ماذا عساه بيدهما أن يفعلا الآن ؟ .

— ماذا بيدهما أن يفعلا ؟ ! .

وكان قولى هذا بصوت مرتفـع حتى أن ميلز وفلورا اللذين كانا يمران بنا آنئذ قد توقفا برهة فى سيرهما ،ونظرا الينا . وقالت المسز جروز :

— أليس يفعلان ما يكفى .. !

وطلبت اليها أن تخفض من صوتها ، بينما راح الطفلان يبتسمان ويومئان الينا ويطيران القبلات تجاهنا على كفيهما، ثم مضيا يكملان استعراضهما .وتوقفا عن الحديث برهة ثم أجبت :

— انهما يستطيعان أن يحطما الطفلين .

وعندئذ التفتت رفيقتى الى فى ضراعة صامته دعتنى الى أن أكون أكثر وضوحا . قلت :

— انهما لا يعرفان للآن كيف يمكن ذلك ، ولكنهما يبذلان غاية الجهد . انهما لا يظهران الا فى أماكن بعيدة .. أماكن غريبة .. على المرتفعات ، على قمم البروج ، وأسقف المنازل وخارج النوافذ والشاطىء الآخر للبحيرة . وكأنما هناك اتفاق مبرم بين الطرفين على تقريب المسافات واجتياز العوائق ، وهكذا يصبح نجاح المختالين فى سعيهما رهنا بالوقت وحده . فما عليهما الا المضى فى اشاعة الخوف ، والتلويح بالخطر .

— لكى يقصد اليهما الطفلان ؟ .

— نعم ، وليموتا وهما يحاولان ذلك .

ونهضت مسز جروز فى بطء فقلت فى حذر :

— هذا بطبيعة الحال اذا لم نستطع نحن منع ذلك من الحدوث .

وظللت جالسة بينما ظلت هى واقفة أمامى ، ورأيتها تقلب الأمر فى رأسها وتتعمقه ثم قالت :

— يجب على عمهما أن يتولى هو مهمة المنع هذه . يجب أن يأخذهما الى مكان آخر .

— ومن يحمله على ذلك ؟ .

وكانت ترنو ببصرها الى بعيد ، ولكنها فجأة نظرت الى فى بلاهة وقالت :

— أنت يا آنسة .

— هل أكتب اليه أن جو منزله قد تسمم وأن ابنى أخيه قد أصيبا بالجنون ..

— ما دام هذا هو ما حدث لهما يا آنسة .

— أتريدين أن تقولى .. مادام هذا هو ما حدث لى أنا؟ ما أبدع أن يبعث اليه بذلك شخص يتمتع بثقته . كان أول الواجبات الملقاة على عاتقه ألا يسبب له أى قلق .

وراحت مسز جروز تتفكر ، وتتعقب الأطفال من جديد ثم قالت :

— نعم : انه لا يحب شيئا أن يقلقه .. وهذا هو السبب الأكبر ..

ـ كيف خدعه هذا الشيطان طول هذه المدة ؟ لقد خدعه ما فى ذلك شك ،ولكن اهماله وعدم اكتراثه بشىء قد بلغا درجة مذهلة . اننى لست شيطانة على أية حال ، وهكذا لن أستحوذ عليه .

وما هى الا لحظة حتى عادت صاحبتى الى الجلوس ، وأمسكت بذراعى .

— اجعليه يعد اليك بأى طريق .

فقلت وأنا أحدق فيها :

— يعود الى ؟ هو ؟ .

وفجأة أصابنى شعور بالخوف مما عساها أن تفعله ، وقالت :

— ينبغى أن يكون هنا .. يجب أن يعيننا .

فنهضت مسرعة ، ولعلى قد بدوت لها بوجه أعجب من الوجه الذى ألفته منى حتى الآن ، وقلت :

— هل تقترحين أن أطلب منه الزيارة ؟ .

— كلا .. لم تكن تستطيع أن تقترح ذلك وعيناها ترنوان الى وجهى . فقد استطاعت كامرأة تفهم ما يدور بذهن امرأة أخرى أن ترى ما يمر بخاطرى ، ترى سخريته ونشوته وازدراءه لعجزى عن أن أطيق الهجر ،ولهذه الحيلة التى أسعى بها لجذب اهتمامه بجمالى الذى يقدره .ولم يكن غيرها يعلم مقدار فخرى بأنى أخدمه دون أن أتجاوز الوضع الذى استقر عليه اتفاقنا . غير أنها وعت التحذير الذى سقته اليها وأنا أقول :

— اذا جننت فبعثت اليه من أجلى ..

وأصابها الهلع الآخذ وهى تقول :

— نعم يا آنستى ؟ .

— فانى راحلة فى الحال عنه وعنك .

الفصل الثالث عشر

كان الاجتماع بهما شيئا جميلا فى ذاته ، ولكن التحدث اليهما لا يزال جهدا تنوء به قوتى . فقد كان يجرى فى أماكن مقفلة فيقيم ذلك فى وجهى مصاعب كأداء كأول العهد بهما .

وظل هذا الموقف على حاله شهرا ، بل انه تفاقم من جراء الوعى الساخر من جانب الطفلين . وانى الآن واثقة كما كنت واثقة اذ ذاك أن الأمر لم يكن مجرد تخيل شرير . فقد كان واضحا أنهما يدركان ما قررت . وظلت هذه الحالة العجيبة القائمة بيننا مدة طويلة تفرض نفسها على الجو الذى نعيش فيه . وما أعنى أنهما كانا يخرجان لنا لسانيهما ، أو أنهما يأتيان عملا مجافيا للذوق . فما كان هذا من بين الأخطار التى تتمثل فيهما . وانما أعنى أن أهم عناصر علاقتنا كان عنصرا غامضا غير واضح . وما كان هذا القدر جميعه من التهرب والمجانبة ليؤتى ثمرته لولا الكثير من التدبير الصامت .

ولطالما أوشكنا أن نواجه أمورا لا مندوحة عن تجنبها. وطالما خرجنا فجأة من مسالك ضيقة كانت تتراآى لنامظلمة.

وطالما سمعنا الأبواب التى ما كان لها أن تفتح بصوت مسموع . فينظر كل منا الى الآخر دهشا . واذا كانت كل الطرق تؤدى الى روما فقـد يخطر لنـا فى بعض الأحايين أن أى موضوع من موضوعات الدرس أو الحديث يوشك أن يوقع بنا فى المحظور . وكان المحظور هو الحديث عن عودة الموتى عامة وعودة صديقى الطفلين خاصة .

ولقد مرت بى أيام كان لا يخامرنى فيها شك أن واحدا منهما قال لصاحبه « أظن أنها ستفعلها هذه المرة .. ولكنها لن تفعل » والفعل الذى يعنيانه هو الاكثار من الاشـارة الى السيدة التى سبقتنى الى تعليمهما .

وكان الطفلان يتوقان أبدا الى سماع أحداث من حياتى الشخصية كنتأرددها عليهما مرارا وتكرارا ،وهكذا أصبحا على علم بكل صغيرة وكبيرة من تاريخى ، وعلى كل ما طرأ على من ظروف ، وما وقع لى من مغامرات صغيرة ، كما كانا يعلمان مغامرات اخوتى وأخواتى ، ومغامرات القط والكلب بمنزلى ، هذا الى جانب الكثير من التفصيل عن نزوات أبى

وأثاث منزلنا ونظامه وأحاديث العجائز من النسوة فى قريتنا. كانت هناك حصيلة كبيرة للسمر ،وقد كنت أومض بالحوادث سراعا وأصبحت بالفطرة أدرك متى أحوم فى الحديث وأدور به . وكانت لهما دربة خاصة على شحذ قـدرتى لاختـلاق الأحداث ، وارهاف ذاكرتى على استعادة الوقائع . وحين أعود بذهنى الى هذه الأيام لا أجد دليلا أقطع من هذا على أننى كنت أراقب سرا . غير أنه كان فوق طاقة حياتى وماضى وأصدقائى .. كان فوق طاقـة كل هؤلاء أن يوفروا لنـا أيسر قدر من الحرية وراحة الضمـير . وان كانت هـذه الأحاديث تؤدى بهمـا — بلا مناسبة — الى حديث الألفة والود . من ذلك انهما كان يضطرانى — دون أن يكون لذلك مناسبة ظاهرة — الى أن أردد عبارة مشهورة لجودى جو سلنج . كما كانا يضطرانى أحيانا أن أكرر التفاصيل التى أصبحت معروفة لديهما عن مهارة حصان معين فى قريتنا.

هذا التحول الذى طرأ على أمورى فى هذه الظروف الحرجة قد جعل موقفى غاية فى الدقة .

وقد كان يخيل الى أن مرور الأيام دون لقاء آخر قمين أن يهدىء أعصابى . فانى منـذ اللقـاء القصـير الذى تم حين رأيت قمـة الدرج امرأة عنـد أسفله .. منـذ

هذا اللقاء لم أر فى داخل البيت أو خارجه شيئا مما أتوق الى البعد عنه .. وكم من منعطف كنت أتوقع أن يفاجئنى عنده كوينت ، وكم من مكان كان مواتيا لظهور مس جيسل ، ولم تظهر . وعاد الصيف ، ومضى الصيف . وحوم الخريف على بلاى وأطفأنا نصف أنوارنا . وأصبح المكان — بسمائه الفضية ، وأزهاره وقد صوحت ، وبقاعه وهى جرداء ، وأوراق أشجاره وقد تساقطت أشبه ما يكون بالمسرح بعد انتهاء التمثيل وقد تناثرت فى أنحائه كلها التذاكر المغضنة .

لقد كان ثمة فى الجو من أصوات وصمت وانطباعات خفية ما أعاد الى النفس لفترة طويلة الاحساس بذلك الجو الذى كان شائعا فى ذلك المساء من يونيه حين التقيت وكوينت لأول مرة ، خارج المنزل . حين رحت أتلمسه عبثا فى دوحة الشجيرات بعد أن شاهدته من النافذة . لقد تمثلت الامارات والنذر .. تمثلت اللحظة والمكان ، ولكنه لم يظهر ، ولم أغضب اذا صح انعدام الغضب وصفا لامرأة شابة لم تفقد حسها ، بل عمق هذا الاحساس منها على نحو بالغ الغرابة.

وكنت قد وصفت لمسز جروز فى حديثى معها مشهد فلورا بجانب البحيرة . وذكرت لها أننى اذا فقدت سيطرتى فذلك أكثر اجتلابا للشقاء من احتفاظى بهذه السيطرة .

ثم شرحت ما كنت أتمثله بعقلى فى وضوح .. انه سواء أكان الطفلان قد شهدا شيئا أم لم يشهدا — فما كان الأمر ثابتا ثبوتا قاطعا — فانى أفضل جدا ، على سبيل الحيطة ، أن أكشف عما رأيته بنفسى .. كنت على تمام الأهبة لمعرفة أسوأ ما يمكن أن يعرف وقد تراآى لى حينذاك أن عينى ربما أغمضتا عن أمور تفتحت لها عيونهما فى انعام وتبصر . نعم ، يبدو أن عينى قد كفتا عن الابصار فى الوقت الراهن.. وهو أمر يستوجب منى حمد الله . غير أن هذا لم يكن بالأمر اليسير . لقد كنت حرية أن أشكره من أعماق روحى لولا هذا الشك الكبير الذى كان يخامرنى عما يطويه الطفلان من أسرار .

كيف أستطيع اليوم أن أذكر هاته الخطوات العجيبة التى مرت بها تلك الحالة المتسلطة على ؟ أوقات قضيناها معا ، وأنا واثقة أثناء وجودى معهما أن زوارا معينين ينالون منهما الترحيب . وان كنت لا أرى من هؤلاء الزوار أحـدا . وحدثت بعد ذلك أمور وجدتنى ازاءها أوشك أن أقول لهما « انهم هنا .. انهم هنا أيها الأشقياء الصغار ولا تستطيعان الآن الانكار » فلا يردنى عن ذلك الا خشيتى أن تفـوق ويلات الكلام ويلات الصمت .

وكان الصغار الأشقياء يكذبون ذلك بالاغراق فى الرقة والتودد والحنو ، تتراآى تحتهاسخرية المتفوق كما تتراآى السمكة فى أعماق الجدول .

وكان وقع الصدمة أشد هولا من وقع صدمتى ليلة كنت أبحث عن كوينت أو مس جيسل فى ضوء النجوم .كان ذلك حين رأيت الصبى الذى سهرت على راحته يرسل نظـراته الحبيبة الى أعلى حيث كان شبح كوينت قد تراآى . ولقد أرهبنى ما اكتشفته فى هذه اللحظة رهبـة ما استشعرتهـا حياتى جميعا . وفى هذه الغمـرة من الذعر رحت أربط بين الواقع وما أستنتجه من الأحداث . ولقد هالنى هذا التفكير هولا رحت معه أقفل الباب من دونىلأجرب بصوت مسموع ما سأقوله حتى أصل الى الموضوع . وكان عملى هـذا يزيح عن كاهلى عبء الحيرة ويلقى على نفسى يأسا جديدا . رحت أجرب هذه الطريقة وتلك وأنا فى حجرتى أتقلب على فراشى حتى اذا نطقت بالاسماء أصابنى الانهيار . فلما ماتت الاسماء على شفتى حدثت نفسى بأننى سأطوى عن ذكرها اذا كان فى نطقى بها اشاعة لجو من الحرج ، لعله أحـرج ما عرفته قاعات الدرس من أجواء .

وحدثت نفسى بأن لهما من الكياسـة ما يحملهما على

الصمت ، بينما أنا — على رغم ما تعلق بى من ثقة — فلى من الخسة ما يحملنى على الحديث ، وحينئذ شعرت بحمرة الخجل تغشانى فرحت أستر وجهى بيدى . وبعد هذه المشاهد الصامتة أخذت أثرثر كما لم أثرثر من قبل .ومضيت فى كلام لا ينتهى حتى أطبق الصمت الرهيب . لا ، لا أجد اسما يصلح وصفا لهذا الصمت .. أكنت أسبح فيه ، أم كان يتصاعد الى ، أم هو السكون ،وتوقف الحياة كلها على نحو لا وشيجة بينه وبين الضوضاء التى تحيط به فى هذه اللحظة .. لا أدرى .. ولكنى كنت أستطيع أن أتبين هذا الصمت من خلال أى ضجيج مرح أو تلاوة عالية ، أو عزف صاخب على البيان ..

لقد جاء الغريبان . لا ، انهما ليسا من الملائكة على أية حال .. وقد تولتنى القشعريرة لوجودهما مخافة أن يوجها الى الضحيتين الصغيرتين رسالة أشد هولا ، أو صورة أكثر وضوحا مما اكتفيا بتوجيهه الى . وكم كان عسيرا أن أتخلص من فكرة قاسية هى أنه مهما يكن أمر ما رأيت فقد رأى ميلز ورأت فلورا أكثر منه . رأيا أشياء هى غاية فى الرهبة والغموض لما تهىء لهما من صداقة سابقة لصاحبى الأشباح المفزعة .. وكان من الطبيعى أن تخلف هذه الأمور

فينا رجفة الخوف فننكر شعورنا بها فى ضجيج ملتاع .وعلمنا تكرر الحادث درسا رائعا . فكنا فى كل مرة نؤذن باقفال الموضوع على نحو يكاد يكون آليا ، متخذين حركات تكاد لا تختلف فى كل مرة عن سابقتها .

ومن الأشياء المؤثرة أن الطفلين كانا اذ ذاك يقبلانى فى اندفاع واصرار وبلا داع دون أن يفوت أحدهما أن يسأل ذلك السؤال النفيس الذى أعاننا على اجتياز كثير من الأخطار ، « متى تظنين انه سيأتى ، ألا ترى انه يجدر بنا أن نكتب اليه ؟ » وتعلمنا بالخبرة ان هذا السؤال كان أعظم الأمور صلاحية لطرد الكآبة والحرج اللذين يخيمان على الموقف . ولم يكن هذا الشخص الذى يومئان اليه الا عمهما فى شارع هارلى بطبيعة الحال . وكنا نحيا على فكرة مزدهرة هى انه قد يصل فى أية لحظة لينضم الى حلقتنا . وكان هو أبعد ما يكون عن تشجيع هذه الفكرة . غير أنه لولا تشبثنا بهذه الخاطرة لحرمنا جميعا هنيهة بالغة فى الرقة .

انه لم يكتب اليهما قط ، ولعل هذا مظهر من مظاهر الأنانية ، ولكنه كان جزءا من اسرافه فى التعبير عن الثقة بى . فقد تكون طريقة تعبير الرجل عن أسمى اعجابه بالمرأة متمثلة فى الولاء لاحد القوانين المقدسة التى تحقق له الراحة.

لهذا اعتقدت أنى حافظت على روح العهد بعدم الالتجاء اليه حين جعلت الصغيرين يفهمان أن خطاباتهما ان هى الا تمرينات أدبية ممتعة . لقد كانت الخطابات أجمل من أن ترسل بالبريد ، فاحتفظت بها لنفسى ، وما زلت أحتفظ بهـا حتى هذه اللحظة .

هكذا استقر الأمر بيننا ، وهكذا جعل هـذا يزيد من اغراقى فى الاعتقاد أنه قد يكون بيننا فى أية لحظة ، وياله من افتراض جدير بالسخرية . وكان صاحبانا الصغيران قد قدرا مدى الاضطراب والحرج الذى سيحيط بى اذا حدث ذلك .

عندما أعود بالذاكرة الى هاته الأيام لا أجـد شيئا أدعى الى العجب من أنى لم يهن عزمى ازاءهما رغم حدة شعورى بالقلق وشدة شعورهما بالنصر ، ولابد أنهمـا كانا غاية فى الفتنة والجاذبية حتى اننى لم أشعر حيالهمـا بالكراهيـة حينذاك . ولكن أترانى كنت سأقيم على الهدوء لو لم يعجل الى الخلاص . على أن هذا التفكير لم يعد ذا أهميـة لأن موعد الخلاص قد وافى . وانى أدعوه الخلاص رغم أنه كان أشبه بانفجار صاعقة فى يوم خانق للأنفاس . غير أنه كان تغييرا على كل حال . وقد أتى مباغتا .

الفصل الرابع عشر

كنا فى صباح يوم أحد نسير وقد أممنا الكنيسة ، وكان ميلز يسير الى جانبى بينما كانت أخته تسبقنا سائرة مع المسز جروز على مرأى منا قريب . وكان يوما صحو السماء جميلا لم يسبق له مثيل منذ فترة من الزمان . وكان ليله قد أمسى بشىء من الصقيع ، وكان هواء الخريف الزاهى الحاد يكاد يضفى على الكنيسة شيئا من المرح . وكان من غريب الخواطر التى انثالت الى ذهنى أنى حمدت لطفلى فى هذه اللحظة ما يبديانه من طاعة واستجابة ، وما كان يلوح عليهما من استمتاع بصحبتى الدائمة التى لاتنقطع . وقد مر بخاطرى أن ثمة أمرا لم أقترفه أبدا ، ذلك أننى لم أكن أرغم أحدا منهما على صحبتى ، ولعل الطريقة التى أنهجها فى تربيتى لهما هى التى كانت تقينى خطر تمردهما . وان بدوت لنفسى كالسجان الذى يغفل عما يمكن أن يحدث من مفاجأة أو هرب . ولكن كل هذا الخضوع الرائع كان ينتمى الى

مجموعة غير عميقة من الحقائق . فلو أن ميلز شاء ذات يوم من أيام الآحاد أن يتأنق فى زيه الذى يحيكه له خياط عمه المسرف الذى يحتفل بالثياب الفاخرة والمظهر الفخم لوقفت حيال مشيئته حائرة مكتوفة اليدين . فمـاذا كان بيدى أن أفعل لو شاء الخروج عن الطاعة منطلقا الى الحرية مؤمنـا بحقه فى الرجولة ومكانته فى المجتمع . وقد كان ايمانه بحقه هذا عميق الأثر فى نفسه . ومن أعجب الأمور أننى كنت حيرى لا أدرى ماذا أفعل اذا وقعت الثورة التى لا محيـد عنها . وانى أدعوها ثورة لأنى أرى الكلمات التى فاه بهـا قد رفعت الستار عن الفصل الأخـير من مسرحيتى الرهيبة وعجلت بالكارثة . قال فى لهجة جذابة :

— أى عزيزتى ، متى بالله أعود الى المدرسة ؟

ولعل هذه الكلمات المسطورة هنا تبدو وليس فيهـا ما يؤذى ، خاصة وقد قيلت بطريقة عرضية جميلة ، فقد كان يلجأ الى هذه الطريقة حين يريد المراوغة فى الحديث ، وكان اذا وجهه الى مربيته حرص على أن يبعث فيه نغما يجعله أشبه بقذف الورد . لقد كان فى كلامه دائما شىء يستوقف النظر . وقد استوقف نظرى بحيث خيـل الى أن احـدى أشجار المنتزه قد سقطت فسدت الطـريق . قـد حدث فى

علاقتنا شيء جديد .. كان يدرى تماما أننى أدركه . ولكنه مع ذلك كان حريصا على أن ييسر على فهمه فلم يشأ أن يكون أقل صراحة و أقل فتنة مما عهدته . واستطعت أن أفهم أنه وجد فرصته واغتنمها حين شعر بعجزى فى الوهلة الأولى .. مر وقت لم أحر فيه جوابا ، وقد أتاح له هـذا الصمت فرصة مواتية ليفكر وليستأنف كلامه بابتسامة لها مغـزى ، وان كان هذا المغزى غامضا :

— تعلمين يا عزيزتى أن وجود رجل مع سيدة دائما ..!

كانت كلمة عزيزتى حاضرة على شفتيه دائما حين يحدثنى. وهذه الكلمة التى تعنى الألفة والحب من أقطـع الأمور فى الدلالة على نوع العاطفـة التى أردت أن أبثهـا فى نفـوس تلاميذى .

ولكنى شعرت أنه أصبح حتما على الآن أن أتخير عباراتى وأذكر أننى حاولت الضحك كسبا للوقت وخيل الى أنى أرى فى مرآة ، وجهه الجميل وهو يرقبنى وأنا أقول :

— كم أنا دميمة ! ؟ ودائما مع نفس السيدة ؟ .

فلم ينظر ناحية أخرى ولا غض من بصره ، لم يعـد بيننا حجاب ، وقال :

— انها بطبيعة الحال سيدة قويمة الخلق لطيفة ، لكنى

أنا صبى .. هل فهمت ؟ .. والصبى يكبر .

وتلبثت لحظة أبدى له غاية العطف والرقة قائلة :

— نعم انك تكبر .

ولكنى شعرت بأننى أصبحت ولا حول لى ولا قوة ، ولم تزل تخامرنى حتى اليوم تلك الفكرة التى صدعت قلبى .. كيف علم هذا ، وتلاعب به ؟ قال :

— وأنت لا تستطيعين أن تنكرى أننى كنت طيبا جدا ، هل تنكرين ؟ .

فوضعت يدى على كتفه لأنى رغم شعورى بأن الخير كان فى أن أمضى لشأنى ، الا أننى لم أكن وقتذاك أستطيع ذلك .. وقلت :

— لا ، لا أستطيع أن أنكر ذلك يا ميلز .

— فيما عدا تلك الليلة الواحدة ، أتذكرينها ! .

— تلك الليلة الواحدة ؟ ! .

ولم أستطع أن أنظر اليه كما يفعل دون أن أغض من بصرى .وقال :

— نعم ، حين نزلت ، وخرجت من المنزل .

— لقد تذكرت ، لكنى نسيت ما حملك على ذلك .

— هل نسيت ؟ .

قالها بروح طفل يعاتب فى رقة وتسامح واستأنف حديثه بنفس هذه الروح قائلا :

— السبب الوحيـد أننى أردت أن أثبت لك أنى أستطيع ..

— نعم ، ولقد استطعت .

— وأستطيع مرة أخرى .

وأحسست أننى قد أفلح مع كل ذلك فى أن أظل محتفظة بعقلى فى رأسى وقلت :

— بكل تأكيد ، لكنك لن تفعل .

— كلا لن يتكرر منى مثل هذه بالذات ، فمـا كانت بشىء ذى قيمة .

— لم تكن بذات قيمة ، ولكن على ألا تعود .

فقال وهو سائر معى لا يزال وقد أخذ ذراعى بيده :

— اذن متى أعود الى المدرسة .

فاتخذت وأنا أقلب الأمـر فى ذهنى مظهر أصحـاب المسئولية الكبرى ، وقلت :

— هل كنت سعيدا جدا فى المدرسة ؟ .

فقال بعد قليل تفكير :

— ولم لا ؟ انى سعيد فى أى مكان ! ! .

فقلت فى صوت مرتعش :

— اذن ، فما دمت سعيدا هنا .

— ولكن ليس هذا كل شىء ، طبعا أنت تعرفين الكثير.

فجازفت بالقول بينما هو ينتظر .

— لكنك تومىء بانك تعرف قدر ما أعرف .

فقال مذعنا فى أمانة .

— بل أقل من نصف ما تعلمين ، وما أرى هذا كافيا .

— ماذا تريد اذن ؟ .

— أريد أن أرى من الحياة أكثر مما أرى .

— فهمت ، فهمت .

وكنا قد أصبحنا بمشهد من الكنيسة ، بحيث يرانا أناس مختلفون ، منهم كثيرون من أسرة بلاى يتخذون سمتهم الى الكنيسة ، وقد تجمعوا حول الباب ينتظرون أن ندخل نحن . فحثثت خطاى . أريد بلوغ الكنيسة قبل أن يزيد الحديث بيننا الأمر تفتحا ووضوحا ، تراودنى فكرة أتلهف اليها من أنه سيضطر الى الصمت أكثر من ساعة .

تمثلت فى شوق منصة الواعظ ، والعون الآلهى الذى تمنحنى اياه وسادة كم تمنيت أن أستند بركبتى اليها . لقد بدوت فعلا وكأنما كنت فى سباق مع موقف مربك يريد أن يجتذبنى اليه ، ولكنى شعرت أن السبق كان له . اذ قال فجأة قبل أن نصل الى باحة الكنيسة :

— انى أريد شخصا على شاكلتى .

وقد جعلنى قوله أقفز فى سيرى وأنا أقول ضاحكة :

— لا يوجد كثيرون على شاكلتك يا ميلز ، اذا استثنينا فلورا العزيزة الصغيرة .

— انك تقارنيننى ببنت طفلة .

فشعرت بضعف شديد وقلت :

— ألا تحب اذن فلورا اللطيفة ؟ .

— وماذا على اذا لم أكن أحبها .. وماذا عليك .. ماذا اذا لم أكن .. ؟

وجعل يكرر هذه العبارة كأنه يتأهب بها لقفزة ، لكنه ترك فكرته دون أن يتمها حتى اذا وصلنا الى الباب الكبير ضغط على بذراعه فأصبح حتما على أن أقف . وكانت مسز جروز وفلورا قد دخلتا الكنيسة وتبعهما المصلون الآخرون ،

فجمعتنا هنيهة انفرد فيها كل منا بالآخر بين المقابر العتيقة المزدحمة .

كان وقوفنا عند الممر الذى يبدأ من الباب الخارجى بجانب قبر ملتصق بالأرض مستطيل الشكل كأنه المنضدة . قلت :

— نعم ، اذا لم تكن .. ؟

فراح ينظر الى بينما ظللت أنا أنتظر بين القبور ثم قال :

— أنت تعلمين ماذا .

ثم لم يتحرك ولكنه أردف بقول جعلنى أتهالك من فورى على المقعد كأنى ألتمس فيه راحة مباغتة .

— هل عمى يفكر كما تفكرين أنت ؟.

فاعتدلت أستريح وقلت :

— ماذا تعرف عن أفكارى ؟

— لا أعرف شيئا بطبيعة الحال ، فمما يدهشنى أنك لا تفضين بها الى مطلقا . ولكنى أسأل هل هو يعرف .

— يعرف ماذا يا ميلز ؟

— الطريقة التى أسير عليها .

وسرعان ما أدركت أنه لا قبل لى بأن أجيب دون أن

أضحى الى حد ما بالرجل الذى أعمل له ، ولكن خطر لى اننا كنا فى بلاى وقد ضحى هو بنا جميعا على نحو يجيز لى أن أفعل . قلت :

— لا أظن عمك يأبه كثيرا .

ووقف ميلز فى سرعة وهو ينظر الى قائلا :

— اذن هل يمكن حمله على ذلك ؟ .

— وما الوسيلة ؟ .

— حضوره .

— ولكن ماذا يحمله على الحضور الى هنا ؟ .

— أنا .

قالها الصبى وقد تألق وجهه تألقا عجيبا ، يؤكد به كلامه توكيدا ، وبعد أن حدجنى بنظرة أخرى تحمل هذا التوكيد ذاته ، أخذ سبيله وحده الى داخل الكنيسة .

الفصل الخامس عشر

أوشك الأمر على الانتهاء منذ توقفت عن اللحاق به . لقد كان استسلاما مؤسفا لمضطربى النفس ، لكن علمى بهذا لم يستطع أن ينقذنى من هذا الاستسلام . فلم أزد عن أن جلست ثمة على القبر ، وجعلت أحلل ما قاله لى صديقنا الصغير لأتعمق معناه جميعـا . فلما بلغت ماأردت عللت نفسى بأنه من العار أن أقدم لتلاميذى والجمع الماثل بالكنيسة مثلا سيئا من التأخر عن الموعد . وكان أهم ما قلته لنفسى أن ميلز قد استطاع أن يحصل منى على شىء ، هو هـذا الانهيار الكئيب . لقد عرف عنى أن هناك شيئا أخافه كثيرا . انه — فى أغلب الظن — سيتمكن من استغلال خوفى هذا ليحصل لنفسه على مزيد من الحرية تحقيقا لأهوائه . وكنت أخشى أن أضطر الى الخوض فى الموضوع المحرم عن أسباب طرده من المدرسة . الأهوال المجتمعة وراء ما يجرى حولى. أما مجىء عمه ليتفاهم معى فى هذه الأمور فهو حل كنت

فى الواقع أتمناه فى لحظتى تلك . لكننى كنت عاجزة كل العجز عن مواجهته ، فاكتفيت بالتسويف والصبر . وكان مما يحرجنى أعمق الحرج أن الصبى كان على حق تماما . فلقد كان فى موقف يسمح له بأن يقول لى « اما أن تسوى مع ولى أمرى مشكلة انقطاعى عن الدراسة أو فعليك ألا تنتظرى منى بعد اليوم أن أحيا الى جانبك حياة غير طبيعية بالنسبة الى الصبى » . وأما الذى بدا غريبا فى أمر هذا الصبى بالذات فهو تجلى ادراكه وبلورة خطته فى الحياة . كان هذا فى الواقع هو ما غلبنى على أمرى وردنى عن دخول الكنيسة . فجعلت أطوف حولها فى تردد وحيرة ، وخطر لى أنى قد آذيت نفسى معه أذى لا صلاح له ، وألا سبيل الى رتق الثوب . وكان من أشد الأحاسيس اضناء لى أن أقبع بجانبه عند المنصة ، انه ثمة سيكون أقدر منه فى أى وقت مضى على أن يضع ذراعه ويجعلنى أجلس هناك مدة ساعة تحت التأثير الصامت المباشر لما قاله اثناء سيرنا . ولأول مرة منذ وصوله الى بلاى تمنيت لو تخلصت منه .

مندى سور الازبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

تلبثت تحت الشباك الشرقى العالى أصغى الى أصوات الصلاة فتولتنى نزعة كادت تأخذ بجميع نفسى لو أننى استسلمت لها كل الاستسلام . لعلى أستطيع أن أضع

نهاية ميسورة لمحنتى فأهجر المكان هجرانا كاملا . وها هى ذى الفرصة مهيأة أمامى ، ولا من يعوقنى . أستطيع التخلص من الموقف كله .. أدير ظهرى له وألوذ بالفرار . وما على الا الاسراع عائدة الى المنزل لأرتب فيه بعض شأنى. والمنزل يكاد يكون خاليا ، فقد كان أكثر الخدم بالكنيسة ولا يستطيع أحد أن يلومنى اذا أنا فررت يائسة . وكيف لى أن أهرب اذا أنا انتظرت الى موعد الغداء .. أى بعد ساعتين ، وتنبأت بما سيصطنعه تلميذاى من دهشة بريئة من عدم وجودى بينهما فى الكنيسة «ماذا فعلت أينها الشقية، لقد تركتنا عند الباب ؟ » لم أكن أستطيع مواجهة مثل هذه الأسئلة ، كما لا أستطيع مواجهة عيونهما الحبيبة الصغيرة الكاذبة .ولم يكن ثمة مفر من هذه المواجهة ، واشتد الموقف خطورة فى نظرى فسمحت لنفسى بالانصراف آخر الأمر .

ذهبت بعيدا فى اللحظة الحاسمة ، خرجت مباشرة من فناء الكنيسة ثم مضيت فى تفكير عنيف عائدة الى الحديث . ويبدو أننى حين بلغت المنزل كنت قد حسمت أمرى على الفرار مهما يجلب على من سخرية .وكان سكون يوم الأحد يغشى المداخل والمسكن ، لم ألتق بأحد فأوحى ذلك الى

بأنها فرصة . هل أهرب بسرعة من هذا الطريق فأمضى الى شأنى بلا ضجة ولا كلام . يجب أن تكون سرعة خارقة . ويجب أن أدبر أمر المواصلات . أذكر أننى كنت فى الصالة وقد أرهقتنى المتاعب والعقبات فهويت عند أسفل الدرج ثم ذكرت فى رعدة كيف رأيت منذ شهر فى هذا المكان ذاته وفى يهيم الليل ، وفدكنتمثقلة بالهموم كما أنا اليوم ، شبح أشد النساء ازعاجا . عندئذ استطعت أن أستقيم على الطريق ، فقطعت الدرج الى أعلى ، وقصدت مرتجفة باضطراب الى حجرة الدرس حيث كنت أقنى بعض أشياء ينبغى لى أن آخذها معى ، وفتحت البـاب فانفتحت عيناى على ضـوء ما ان رأيته حتى حزمت أمرى على المقاومة .

رأيت على منضدتى الخاصة فى ضوء الظهـيرة امرأة جالسة كنت لولا حادث سابق جديرة بأن أظنها لأول وهلة وصيفة بقيت بالمنزل لتحرس المكان واغتنمت فرصة بعـدها عن الرقيب ووجود نضد فى حجـرة الدرس وعليه أقلامى ومدادى وورقى فجلست اليه تقـدح زناد فكرها لتكتب خطابا الى حبيبها .

وكان يبدو عليها الارهاق ، اذ بينما ارتكز ذراعاها على النضد راحت يداها فى اعياء ظاهر تسندان رأسها . وظلت

برغم دخولى محتفظة بوضعها ثابتا على حاله ، حتى اذا غيرت وضعها تبينت شخصها .

نهضت لا يبدو عليها أنها قد سمعتنى ، وانماظلت تكسرها مسحة واضحة من الكآبة ، كآبة من لا يكترث أو يحتفل . وعلى مبعدة أقدام وقفت فى صورة سلفى الوضيعة . بدت أمامى فى مهانة وحزن ، ولكنى ما كدت أستبين الشخصية وأتذكرها حتى اختفت الصورة المخيفة كانت سوداء كمنتصف الليل فى ثوبها الأسود ،وجمالها الشاحب ،وبؤسها الغامر . وقد ظلت رانية الىّ وقتا كان يسمح لها أن تقول — لو أردت القول — ان لها حقها فى الجلوس الى نصدى ، كما لى الحق فى الجلوس الى نضدها . وفى هذه اللحظات أصابتنى رعدة من شعور عجيب بأنىأنا الدخيلة وليستهى. وكأنما كنت أغالب هذا الشعور فى وحشية حينخاطبتها فعلا، « أيتها المرأة التعسة المخيفة » وسمعت نفسى أتفجر وينطلق صوتى مارا من الباب المفتوح ليجلجل فىالممر الطويلوالبيت الخاوى . فنظرت الى وكأنها قد سمعتنى ، ولكنى كنت قد أفقت ، وصفا الجو . لم يكن بالحجرة فى اللحظة التالية غير ضوء الشمس والاحساس بأنى يجب أن أبقى .

الفصل السادس عشر

كنت أتوقع ، وأنا محقة فى توقعى ، أن يعود الآخرون فى مظاهرة صاخبة ، ولكن أعاد القلق الى نفسى أننى وجدتهم صامتين يلتزمون غاية الأدب بشأن تركى اياهم . فبدلا من الهزء والمرح بى لم تند عنهم اشارة الى تركى اياهم . وحين لاحظت أن مسز جرو هى الأخرى لم تقل شيئا رحت أدرس وجهها العجيب . وقد عمدت الى ذلك عمـــدا حتى تأكدت أنهما قد أغرياها بحيلة أو بأخرى أن تلتزم الصمت . لكنه كان صمتا أعلم أنى أستطيع تحطيمه فى أول مناسبة تجمعنا. وحلت المناسبة قبل موعد الشاى . فقد استطعت أن أنفرد بها دقائق خمسا فى غرفة رئيسة الخدم ، فى غبشة من الضياء وقد تصاعدت حولنا رائحة الخبز قريب العهد بالتنور .ولكن المكان كان نظيفا معتنى به . وجدتها أمام النار فى هـــدوء يشى بالألم . وما زلت أتمثلها فى أتم وضوح تواجه اللهب من كرسيها فى الحجرة اللامعة المغبشة ،صورة نظيفة كبيرة من

التجرد وعدم الاكتراث تحيط بها أدراج مقفلة أحكم رتاج بعضها وبقى البعض الآخر دون أن تعالج الأيدى فتحه . قالت :

— نعم لقد طلبا الى ألا أقول شيئا ، وقد قبلت أن أفعل ذلك فى وجودهما لأدخل السرور الى نفسيهما ، ولكن ماذا دهاك ؟ .

— أنا ؟ انما سرت معك للتنزه فقد كان على بعد ذلك أن أذهب للقاء صديق فظهرت عليها أمارات الدهشة .

— صديق ؟ ! أنت ! .

فقلت ضاحكة :

— نعم . لى اثنان . لكن هل ذكر لك الطفلان سببا يبرر الصمت ؟ .

— الصمت عن تركك ايانا ؟ نعم لقد قالا انك تفضلين ذلك ، هل تفضلينه حقا ؟ .

وملأها منظر وجهى بالأسى وأنا أقول :

— لا ، لا أفضله .

ثم أضافت بعد هنيهة :

— هل أخبراك عن السبب فى تفضيلى لذلك ؟

— لا وانما قال السيد ميلز « يجب ألا نفعل غير ما تحب » .

— وددت لو فعل . وماذا قالت فلورا ؟ .

— كانت مس فلورا لطيفة جدا قالت ، « طبعا ، طبعا » وقد قلت أنا نفس الكلام .

ففكرت لحظة ثم قلت :

— لقد كنتم فى غاية اللطف .. فى غاية .. وانى أستطيع أن أتمثل كل ما قلتموه ومع ذلك فقد انتهى كل شىء بين ميلز وبينى .

فقالت رفيقتى وهى تحملق :

— كل شىء انتهى ؟ ! ! لكن ماذا يا آنسة ؟ .

— كل شىء . لا يهم . لقد صح عزمى ، لقد جئت الى المنزل يا عزيزتى لأتحدث الى مس جيسل .

وكنت فى ذلك الوقت قد تعودت السيطرة على مسز جروز بما ألقيه من أحاديث . وأوشكت أن تتهاوى تحت تأثير كلمتى ولكنها تماسكت لتقول فى دهشة :

— تتحدثين اليها .. أتقصدين أنها تكلمت ؟..

—أوشكت أن تفعل . لقد وجدتها فى حجرة الدرس عند عودتى .

— وماذا قالت ؟ .

مازال صوت المرأة الطيبة يرن فى أذنى حتى الآن ومازلت أتمثل براءة دهشتها وهى تلقى بهذا السؤال ، قلت لها :

— انها تعانى عذابا ..

وقد جعلها قولى هذا تفغر فاها وهى تنظر الى ، وتقول متلعثمة .

— هل تقصدين .. ممن فقدتهم ؟ .

— من الملعونين . وهذا هو السبب فى أنها تشاركهما .

وكدت أتهاوى أنا نفسى من الهول . ولكن رفيقتى التى لا تتمتع بمثل خيالى قد حفظت على تماسكى قائلة :

— تشاركهما ؟ ! .

— انها تريد فلورا .

— وكادت مسز جروز وهى تسمع ذلك أن تقع منى لو لم أكن مستعدة لذلك ، فقد ظللت ممسكة بها وأنا أقول :

— ان الأمر كما أخبرتك . الأمر لا يهم .

— لقد عزمت على أمر . لكن علام عزمت ؟ .

— على كل شيء .

— ما معنى كل شيء ؟ .

— الكتابة الى عمهما .

فانطلقت صاحبتى تقول :

— افعلى يا آنسة . انى أستحلفك .

— سأفعل ، انى مصممة ، انه الطريق الوحيد . أما الذى انتهى بينى وبين ميلز فهو أنه — وقد ظننى خائفة أن أكتب الى عمه — حسب أنه يستطيع أن يستغل خوفى هذا ، وسيرى انه خاطىء . نعم .. نعم .. فسيتسلمه عمه هنا منى فى الحال .. فلا يلومنى ثانية على أنى لم أفعل شيئا ازاء اكمال دراسته .

— نعم يا آنسة .

قالتها فى تلهف والحاح :

— حينئذ يوجد هذا السبب الرهيب .

ووضح أن زميلتى المسكينة قد تكاثرت عليها المعضلات حتى لقد صار من حقها أن يختلط الأمر عليها .

— لكن ما ..ماذا ؟ .

— الخطاب الذى وصل من المدرسة .

— هل ستطلعين السيد عليه ؟ .

— كان يجب أن أفعل ذلك فى الحال .

فقالت مسز جروز فى تصميم :

— أوه .. لا .

فقلت فى عزم لا ينثنى :

— سأعرض الأمر عليه .. انى لا أستطيع أن أحل مشكلة طفل طرد ..

فقالت مسز جروز :

— اننا لا نعرف شيئا البتة عن السبب .

— انه شرير . ماذا عساه يكون من سبب آخر . انه مجد وجميل ودقيق ؟ هل هو غبى ؟ هل هو مهمل ؟ هل هو مختل؟ هل هو شرس الطبع ؟ انه رائع .. فلن يكون ثمة من سبب غير ذاك . وهذا هو مفتاح كل شىء ، ومع ذلك فان الخطأ يقع على عمها ما دام قد ترك هنا مثل هؤلاء الناس .

— انه لم يكن يعرف على الاطلاق . ان الخطأ منى .

وشحب لونها تماما وهى تذكر ذلك فأجبت :

— انك لن تتعذبى .

فأجابت فى تأكيد .

— والطفلان .. لن يتعذبا ؟ .

فسكتت برهة ، ونظرت كل منا الى صاحبتها وقلت :

— اذن ماذا أقول له ؟ .

— لا حاجة بك الى اخباره بشىء ، سأتولى أنا اخباره .

فراجعت ما تقول فى ذهنى ثم قلت :

— أتقصدين أنك ستكتبين .. ؟ .

— ثم تذكرت أنها لا تستطيع ، فاعتدلت فى وقفتى وسألتها :

— وكيف تكتبين ؟ .

— أملى على المحضر وهو يكتب .

وكان فى السؤال نغمة ساخرة ما قصدت اليها مطلقا الأمر الذى جعلها تنهار بعد برهة وقد امتلأت عيناها بالدموع :

— نعم يا آنستى .. أنت تكتبين .

فأجبت آخر الأمر .

— نعم الليلة .

وافترقنا .

الفصل السابع عشر

بلغت فى المساء الى موقف أستطيع أن أعتبره بداية . وكان الجو قد عاد الى عربدته وكانت الرياح شديدة العصف. وقد جلست تحت المصباح فى حجـرتى وجلست فلورا الى جوارى مطمئنة . ومضت فترة طويلة وأنا أرنو الى صحيفة أمامى بيضاء يصخب هدير المطر فى أذنى ، وتختلط الأخيلة فى رأسى . ثم قمت آخر الأمر وأخذت شمعة فى يدى وخرجت الى الممر فعبرته ورحت أرهف السمع عند باب ميلز . وكنت أتسمع فى استغراق عميق فخيل الى أنى أسمع ما يدل على أنه غير مرتاح . وسرعان ما وصلت الى دليل على ذلك ،ولكنه لم يكن فى الصورة التى رسمتها فى ذهنى . فلقد رن صوته فى حدة قائلا :

ـــ أقول لك ادخلى ، انه مرح فى الظلام .

دخلت والشمعة فى يدى فوجدته فى الفراش يقظا أشـد ما تكون اليقظة ، مرحا أيضا أهنأ ما يكون المرح والاستمتاع.

— ماذا تريدين ؟ .

بهذا السؤال طالعنى فى ألفة رشيقة خيل الى معها أن مسز جروز لو كانت حاضرة لما وجدت شاهدا مطلقا يوحى بأن الأمر بينى وبينه قد انتهى .

وقفت بشمعتى الى جانب السرير وقلت :

— كيف عرفت أنه أنا ؟ .

— كيف ؟ ! لقد سمعتك . أتحسبين أنك لم تحدثى صوتا ؟ انك تسيرين كفرقة من فرق الفرسان !!

وكان يشيع فى كلامه ضحكة عذبة ، قلت له :

— اذن لم تكن نائما ؟ .

— لم أكن نائما تماما . انى أستلقى يقظا وأفكر .

وعمدت الى وضع الشمعة غير بعيد ، فمد يده الودود الىّ وقد جلس على حافة السرير . قلت له :

— ما هذا الذى تفكر فيه ؟ .

— ماذا عساه يكون غيرك أنت .

— ان الفخر الذى تضفيه على بتقديرك ليس أهلا لما تفعله ، انى أفضل جدا أن تنام .

— وأفكر كذلك — كما تعلمين — فى موضوعنا العجيب .

— وما هو ذلك الموضوع العجيب ؟ .

وأحسست برودة يده الصغيرة الحازمة فأعدت سؤالى :

— ما هو الموضوع العجيب يا ميلز ؟ .

— انه الطريقة التى تنهجين فى تنشئتى . والأمور الأخرى جميعها .

وكدت أعجز عن التنفس برهة ، ورأيت خلل وسادته ، وعلى الضوء المتهافت أنه يبتسم لى .

— وماذا تقصد بالأمور الأخرى جميعها ؟ .

— انك تعلمين .. انك تعلمين .

فما استطعت أن أحير جوابا ، واستمر صمتى دقيقة ،وان كنت شعرت وأنا أمسك يده وعيوننا فى التقاء دائم أن فى صمتى كل مظاهر الاعتراف بالتهمة التى يلقيها ، وأن حياة الواقع كلها ليس فيها شىء خرافى فى لحظتنا تلك مثل العلاقة الحقة التى تربط بيننا . قلت :

— لا شك أنك عائد الى المدرسة ، اذا كان هذا هو ما يشقيك . ولكنك لن تعود الى المدرسة القديمة ، لابد لنا أن نجد أخرى خيرا منها . كيف كان لى أن أعلم أن هذا الأمر يشقيك ما دمت لم تخبرنى بذلك قط ، ولم تشر اليه مطلقا فى حديثك .

وكان وجهه الصريح المنصت وقد أحاطت به هالة بيضـــاء ناعمة قد جعلته أشبه بطفل مهموم فى مستشفى أطفال . ولما قفز هذا التشابه الى ذهنى أصبحت على استعداد لأن أضحى بكل ما أملك فى الحياة لأكون الممرضة أو الراهبة التى تعينه على شفائه . وحتى اذا لم يصل به الأمر الى ذلك فقد كنت أريد عونه . قلت له :

— أتعلم انك لم تصرح لى بكلمة عن مدرستك .. أعنى عن مدرستك القديمة .. لم تشر الى ذلك عن أى طريق .

فبدا عليه العجب ،وألقى على فمه الابتسامة المحببة ،وبدا من الواضح أنه يريد أن يكسب وقتا للتفكير ، فانتظر ثم سأل حتى يتاح له مزيد من الوقت :

— ألم أفعل !؟ .

ان العون لن يأتيه من جانبى بل من جانب ذلك الشىء الذى التقيت به . فقد أصبحت موجعة القلب على عهد لم آلفه وأنا أسمع سؤاله وهذه النبرة الذى ألقاه بها ، وأرى ملامح وجهه . كان من آلم الأمور وأشدها استعصاء على الوصف منظر عقله الصغير المرتبك وادراكه الصغير المرهق بتمثيل دور البراءة والانسجام . أجبت قائلة :

— مطلقا .. منذ اللحظة التى عدت فيها .. انك حتى لم تذكر لى اسم مدرس من مدرسيك ولا زميل من زملائك ، ولا أى هنة عما كان يحدث لك فى المدرسة .. مطلقا يا ميلز الصغير .. مطلقا .. لم تذكر لى كلمة واحدة عن أى شىء وقع هناك .

وهكذا تستطيع أن تتصور أى ظلام أحاط بى منذ اللحظة الأولى التى رأيتك فيها حتى قلت ما قلته هذا الصباح .. لم تشر مطلقا الى أى شىء فى حياتك الماضية . كان يبدو عليك أنك تقبل الحاضر قبولا مذعنا تاما .

وكان من أعجب الأمور أن اقتناعى العميق بنضجه المبكر قد جعله يبدو — رغم بعض تعب خبىء — وكأنه يستطيع أن يعى ما يوجه اليه من كلام الكبار ، الأمر الذى جعلنى أعامله معاملة الند الذكى واستأنفت حديثى قائلة :

— حتى لقد كنت أظنك تريد أن تظل حياتك كما أنت .

وأثر فى نفسى عند ذلك أن لونه قد امتقع. ولكنه استطاع أن يتغلب على امتقاعه وهز رأسه فى شحوب كأنه فى النقاهة ما يزال يخامره شىء من التعب وقال :

— بل لا أريد . أريد أن أرحل .

— هل تعبت من بلاى ؟ .

— على العكس ، انى أحب بلاى .

— اذن .. ؟

— أنت تعلمين ما يهفو اليه الصبى .

فشعرت أننى لاأبلغ من المعرفة مبلغه ،واحتميت بجوابى وأنا أقول :

— هل تريد الذهاب الى عمك ؟ .

وعاد اذ ذاك الى الحركة على الوسادة بوجهه الساخر الجميل وقال :

— انك لن تستطيعى التخلى .

فصمت برهة ، ولعل لونى قد امتقع هذه المرة .

— يا عزيزى انى لا أريد التخلى .

— ولن تستطيعى حتى اذا أردته . لا تستطيعين .. لا تستطيعين .

واستلقى يهمهم قائلا :

— لابد أن يأتى عمى . ولا بد أن تسويا الموقف تسوية تامة .

فأجبت فى شىء من المرح :

— اذا فعلت فتأكد اننا سنتفق على نقلك من هذا المكان.

— وهل جهلت أن هذا هو عين ما أسعى الى تحقيقه . عليك أن تخبريه عن الطريقة التى أتحت بها لكل هذه الأشياء أن تقع .. ان ثمة الكثير سيكون عليك أن تخبريه به .

وكان سروره الغامر وهو ينطق بهذه العبارة يعيننى الى حد ما على المضى للالتقاء .

— وما مقدار ما ستذكره له أنت ؟ هناك أمور سيسألك عنـــها .

ففكر وقال :

— نعم .. الغالب أن الأمر سيكون كذلك ، لكن ما هى هذه الأمور ؟ .

— الأمور التى لم تذكرها لى مطلقا ، ليكون رأيا فيما يفعله نحوك ، انه لا يستطيع أن يعيدك .. فقاطعنى قائلا :

— لا أريد العودة . أريد ميدانا جديدا .

قال هذا فى جد حازم وفى مرح قوى صاف ، ولا شك أن تلك النبرة هى ما بعث فى الألم والشعور بالمأساة غير الطبيعية التى يعيشها الطفل . انها عودته الى الظهور بعد ثلاثة أشهر

وقد أحاط به هذا القدر جميعه من صلابة الجبين ومن مظاهر العار . وسيطر على اذ ذاك شعور بأنى لن أستطيع أن أحتمل ذلك ، وقد جعلنى هذا الشعور أطلق نفسى على سجيتها ، فارتميت عليه واحتويته فى أحضانى عطفا ورثاء .

— أى عزيزى ميلز ، أى عزيزى ميلز .

وكان وجهى قريبا من وجهه ، فأتاح لى أن أقبله ، وأن آخذ الأمر بروح غاية فى المرح :

— نعم أيتها السيدة العزيزة .

وأدار وجهه الى الحائط ومد يده لينظر اليها كما يفعل المرضى من الأطفال وقال :

— لقد أخبرتك .. أخبرتك هذا الصباح .

وشعرت بالأسى لحاله وقلت :

— انك تريدنى ألا أزعجك .

فالتفت الى كأنما يريد أن يؤمن على صحة فهمى له ، ثم قال فى دعة رقيقة :

— أريدك أن تتركينى وشأنى .

قالها فى اعتداد وكرامة يدعوان الى الاعجاب ، كان فيه شىء جعلنى أدعه فلا أضايقه ، وجعلنى أتلبث بجانبه هونا

ثم أنهض متباطئة ، علم الله أنى لم أشأ ازعاجه قط ، ولكنى شعرت أن انصرافى عنه فى هذه اللحظة كان معناه أنى أتخلى عنه ، أو اذا شئت الحق المطلق فقد كان معناه أنى فقدته .

قلت له :

— لقد بدأت أكتب خطابا الى عمك .

— اذن أكمليه .

فتريثت هنيهة ثم قلت :

— ماذا حدث قبل ؟ .

فعاد يحدق النظر وقال :

— قبل ماذا ؟ .

— قبل رجوعك ، وقبل انصرافك .

فصمت لحظة وقد ظلت عيناه تلتقيان بعينى :

— ماذا حدث ؟ .

وخيل الى وأنا أصغى الى كلماته أنها تحمل نبرة مرتجفة تحمل الشعور بالموافقة فحملنى هذا على أن أركع على ركبتى بجانب سريره وأنتهز الفرصة ثانية ، فتمالك نفسه بعض الشيء وسألته :

— أى عزيزى ميلز ، أى عزيزى ميلز ،لو عرفت الىأى

مدى أريد عونك ، ان هذا كل ما يهمنى فمـا أهتم بشىء سواه . انى لأوثر الموت على أن أتسبب فى ألمك أو أن اخطىء نحوك .. انى لأوثر الموت على أن تمس من جسمك شعرة .. أى ميلز العزيز .. انما أريد أن تعيننى على أن أنقذك .

وما هى الا هنيهة حتى أدركت أنى قد تجاوزت الحد الذى كان ينبغى لى أن أقف دونه . لقد جاء الجـواب على ضراعتى فورا ، لكنه جاء فى صورة غير طبيعية .. ريح وبرد .. ريح عاتية من الهواء المتجمد وهزة رجت الغرفة رجا . وكأنما قد تحطمت خزائن الاعاصير فانطلقت لا تقف عنـد مدى . فندت عن الصبى صيحة عالية هزيلة كاد هول الضجيج حولنا أن يبتلعها لولا أننى كنت بجانبه ، صيحة اختلط على أمرها فهى صيحة نصر ، أو صيحة فزع . فنهضت على قدمى ثانية ، فاذا الغـرفة مظلمة ، وهكذا ظللنا برهة وأنا أحملق حولى فأجد الستائر مسدلة لم تهتز ، والنافذة محكمة الرتاج لا تزال ، ثم صحت قائلة :

— كيف انطفأت الشمعة ؟ .

فقال ميلز :

— أنا الذى نفختها فانطفأت يا عزيزتى .

الفصل الثامن عشر

فى اليوم التالى — بعد الدروس — خلت بى المسز جروز لحظة فقالت لى :

— هل كتبت الخطاب يا آنسة ؟ .

— نعم كتبته .

ثم لم أضف الى اجابتى أن خطابى وقد كتب عليه العنوان وأقفل لم يزل فى جيبى وقد ارتأيت أنه لم يزل ثمة متسع من الوقت لارساله . وقد طلع الصباح على تلميذىّ صحوة مشرقة لم يريا لها مثيلا . وبدا كل منهما وكأنه يتوق الى الاعتذار عن أى هنة صدرت عنه فى أيامهما القريبة .وقد راحا يحلان مسائل الحساب فى مهارة مذهلة ، ويتبادلان النكات الجغرافية والتاريخية فى مرح لم يعهداه من قبل وكان من الطبيعى أن تبدو من ميلز خاصة الرغبة فى اظهار مهارته على اغاظتى فى سهولة . كان هذا الطفل يحيا فى جو اختلط فيه الجمال بالشقاء بصورة تعجز الكلمات عن الاحاطة بها . وكان ممتازا فى كل ما ينكشف عنه من دوافع،

لم أر مثله طفلا يبدو للعين الساذجة مثالا من الطهر الصريح والطلاقة فى ألوانها جميعا ، ثم هو مع ذلك رجل على غاية العجب والدهاء . وهكذا أصبح حتما على دائما أن ألتزم منه جانب الحرص حتى لا أغوص فى دوامة التأملات التى دار بى فيها تفكيرى الجديد . وأصبح حتما على أيضا أن أكف عن النظر الهائم ، والتنهد الحبيس ، والتهويم الذى كنت أواجه به تلك الأحجية . ماذا يمكن أن يكون قد اجترم هذا السيد الصغير حتى يستحق العقوبة . أيمكن أن تكون هذه الظاهرة العجيبة التى طالعتنى منه قد فتحت عليه أبواب الخيالات الشريرة جميعا .فقد كنت أحاول أن أتلمس الدليل على أن هذه الخيالات يمكن أن تتحول الى أفعال.. كنت أحاول ذلك بكل ما خلقت عليه من انصاف .

لم يبد مطلقا فى صورة الرجل الدمث الرائع قدر ما بدا بعد غدائنا المبكر فى ذلك اليوم الرهيب ، حين قصد الى يسألنى ان كنت أريد الاستماع الى عزفه لمدة نصف ساعة. لا .. ما كان داود ليحس روح المناسبة اذ يعزف لسول كما كان يحسه ميلز . لقد كان عرضا شائقا للكياسة والشهامة.. وكأنما أراد أن يقول لى فى صراحة :

— ان الفرسان الذين نحب أن نقرأ عنهم والخليقين

بهذا الاسم لا يتمادون فى التنكيل بمن يهزمون . انى أفهم ما ترمين اليه الآن . انك تعنين أنك اذا تركت وشأنك دون أن يتتبعك أحد فانك ستكفين عن اقلاقى والتجسس علىّ والحرص على ابقائى بمقربة منك قريبة . ستتركيننى أغدو وأروح . نعم انى أغدو ولكنى لا أروح سيتسع الوقت لذلك فيما بعد . انى حقيقة ألتذ صحبتك وانما أردت أن أريك أنى انما أكافح لاقرار مبدأ معين .

ويمكن أن تتخيل ما حدث ، أترانى قاومت هذا الدعاء أو عجزت عن صحبته ثانية وقد تشابكت أيدينا الى حجرة الدرس . لقد جلس الى البيانو القديم وعزف خيرا مما كان يعزف فى أى يوم من الأيام . واذا رأى بعض القوم أنه كان يجدر به أن يلعب الكرة بدلا من هذا العزف فقد كنت أنا أيضا أرى رأيهم . ومضى وقت ، ولا أعرف كم من الوقت مضى ثم أفقت وأنا أحس احساسا عجيبا .. لقد دهمنى النوم فى مجلسى . كان ذلك بعد الغداء .وكنت الى جوار المدفأة فى حجرة الدرس : ولكن أترانى لم أنم مطلقا ، نعم انى لم أنم ولكنى أتيت أمرا هو أشد من النوم سوءا .. فلقد نسيت أين كانت فلورا طوال هذا الوقت ؟ وحين وجهت هذا السؤال الى ميلز تشاغل عن الجواب بعض الوقت

ثم لم يزد على أن قال : «ماذا ياعزيزتى؟.. وكيف لى أن أعلم؟» ثم انفجر ضاحكا فى سعادة ضحكا لم يزل يمده حتى أحاله أغنية طويلة مفككة .

ذهبت من فورى الى حجرتى ، ولكن أختـــه لم تكن هناك ، وقبل أن أهبط الدرج بحثت عنها فى غرف عدة دون جدوى فأيقنت أنها مع مسز جروز . ومضيت وقد ارتحت الى هذه الفكرة لأبحث عن المسز جروز . فوجدتها حيث لقيتها فى الليلة الماضية ،ولكنها جابهت هذا التساؤل الملهوف من جانبى بجهل مفزع لا يفيد شيئا ، فقد كانت تظن أننى صحبت الطفلين الى الخروج بعد الغداء . وكان من حقها أن تظن هذا الظن فقد كانت المرة الأولى التى سمحت فيهـا للطفلة أن تغيـب عن ناظرى دون أن أتخـذ لذلك الحيطة الواجبة .

لعلها اذن مع الخادمات ، فلابد اذن من البحث العاجل دون أن أبدى شيئا من الذعر . وسرعان ما رسمنا خطة . ولكن حين التقينا فى الردهة بعد دقائق عشر طبقا لخطتنا لم يكن ثمة ما تفضى به احدانا الى الأخرى غير أننا كلتينا قد فشلنا فى تتبعها بهذه التحريات التى أجريناها فى تحفظ .

وهناك مكثنا دقائق فى منأى عن الأنظار نتبادل امارات الفزع الصامت . وشعرت الى أى مدى من الاهتمام بلغت صديقتى ، وقد غشت اهتمامها معالم الذعر التى اتضحت عنها قسمات وجهها منذ الوهلة الأولى . وسرعان ما قالت :

— ستكون بالدور الأعلى .. فى احدى الغرف التى لم تفتشيها .

— كلا ، بل هى على بعد .

— ثم انتهيت الى قرار فى هذا الأمر وأنا أقول قاطعة :

— لقد خرجت .

فقالت مسز جروز مشدوهة :

— بدون قبعة .

وكان من الطبيعى أن يبدو علىّ العجب أنا أيضا وقلت :

— أليست هذه المرأة بدون قبعة دائما .

— أو هذه المرأة معها ؟ .

— ان المرأة معها .. يجب أن نبحث عنهما .

وكانت يدى على ذراع صديقتى ولكنها — وقد طالعها هذا التفسير للموقف — لم تفد شجاعة من يدى التى كانت تشد على ذراعها ، بل انها أسلمت زمامها الى قلق وتوجس وقالت :

— وأين السيد ميلز .

— انه مع كوينت . سيكونان فى حجرة الدرس .

— عجيبة يا آنسة .

وكنت أدرك أن مظهرى وربما صوتى لم يبلغا بعد مبلغ ما انتهيت اليه من هذا التأكد الهادىء . فمضيت أقول :

— لقد جازت الحيلة . لقد نجحوا فى تنفيذ خطتهم .لقد اهتدى الى خير وسيلة تحفظ على هدوئى بينما تخرج هى.

وصاحت مسز جروز .

— خير وسيلة ؟ ! .

— أسوأ وسيلة اذن ! .

قلتها فى صوت يكاد يخالطه السرور ثم أضفت قائلة :

— لقد احتاط لنفسه أيضا ، لكن حيلته قد كشفت .

فتجهمت فى يأس وقالت :

— هل تتركينه .. ؟

— كوينت ؟ نعم ، لا مانع لدىّ الآن .

وكانت دائما تختم حديثها معى فى مثل هذه الظروف بأن تمسك بيدى ، وهكذا استطاعت فى هذه المرة أن

تستبقينى ، لكنها بعد أن تنفست من أعماقهـا لاستسلامى المفاجىء ، قالت فى حماسة :

— أهذا بسبب خطابك ؟ .

وكانت اجابتى هى أن رحت أتحسس خطابى بسرعة ثم أخرجته وأمسكت به وانطلقت متخففة الى النضد الكبير بالردهة وقلت وأنا عائدة اليها :

— سيأخذه لوك .

ثم قصـدت الى باب المنزل ففتحته وبلغت الدرج ، بينما ظلت صاحبتى مترددة ، كانت زوبعة المساء قد انقشعت كما تزايل هواء الصباح الباكر ، وأصبح الجو رطبا غائما فى الأصيل ، فنزلت الى الطريق وهى واقفة لا تزال — فى مدخل الباب تسألنى :

— أتذهبين بلا ملابس ؟ .

— وما يهم ما دامت الطفلة بلا ملابس أيضا ؟ لا أستطيع الصبر حتى ألبس ، فاذا صممت أنت على اللبس فسأتركك ، ولكن عليك أن تذهبى الى الطابق الأعلى .

— معهم .. !

وما لبثت المرأة المسكينة أن سارعت منضمة الىّ .

الفصل التاسع عشر

شخصنا من فورنا الى البحيرة ، فهكذا كانوا يطلقون عليها فى بلاى ، ولعلها كانت جديرة بهذا الاسم وان كان سطحها المائى يتراءى لعينى أقل شأنا من أن يكون بحيرة. ولكن عينى لم تكن كثيرة الاسفار فمعرفتى بمسطحات المياه ضئيلة .

راعنى الاتساع والاضطراب من بحيرة بلاى فى المرات القليلة التى قبلت فيها أن أمخر عبابها فى حماية تلميذى بذلك القارب العتيق المسطح القاع الذى كان مشدودا هنالك لنستعمله حين نشاء . وكان المكان الذى تعود القارب أن يرسو فيه يبعد عن المنزل نصف ميل . لكنى كنت على ثقة راسخة أن فلورا قد تكون فى أى مكان الا أن تكون على هذه المقربة من المنزل . فما كانت تقبل منى أن نقوم بأية مغامرة صغيرة . ومنذ تلك المغامرة الكبرى التى شاركتها

فيها قرب البحيرة أصبحت أعرف الاتجاه الذى تؤثره فى نزهاتنا .

وهكذا وجهت خطوات مسز جروز وجهة واضحة ، ما ان استبانتها حتى راحت تكتم مقاومتها كتمانا عرفت منه أن الارتباك والبلبلة قد عاوداها من جديد .

— أذاهبة أنت الى الماء يا آنسة .. أتظنين أنها ..

— لعلها تكون ، ولكن العمق ليس كبيرا فى أى مكان على أية حال ، وانى أرجح جدا أنها فى المكان الذى شاهدنا فيه معا الشىء الذى أخبرتك عنه يومذاك .

— حين تظاهرت بأنها لا ترى .. ؟

— نعم .. بهذه القدرة الخارقة من السيطرة على الأعصاب ! لقد كنت دائما على ثقة من أنها تريد العودة اليه وحدها وقد مكن لها أخوها اليوم من ذلك .

وظلت مسز جروز واقفة حيث هى وقالت :

— أتظنين أنهما حقا يتكلمان عنهما ؟ .

وكان لابد لى أن أؤكد أن الأمر كان كذلك فقلت :

— انهما يقولان أشياء خليقة أن تثير فينا الرعب اذا نحن سمعناها .

— واذا كانت هناك .. ؟

— نعم ؟ .

— فمس جيسل موجودة معها اذن ؟ .

— لا شك ، سترين .

— شكرا .

صرخت بهـا صديقتى وقد ثبتت قدميها فى اصرار ، فمضيت شأنى دونها ، غير أنها كانت فى أثرى قبل أن أبلغ البحيرة . فأدركت أن خشيتها علىّ تفوق خشيتها مـن أن يعرف أحد مؤازرتها لى . وتنفست الصعـداء حين وصلنا أخيرا الى حيث نرى الجزء الأكبر من سطح الماء ، ولكن الطفلة لم تكن هنـاك . لم يكن لفلورا أثرا على الجانب الأقـرب من الشاطىء حيث كنت أبحث عنهـا بفـزع آخذ . ولم يكن على الشاطىء المقـابل شىء اللهم الا ذلك الشريط الممتد عشرين ياردة من الأحراش الكثة التى تتهدل فى الماء . وكان هذ الشريط مستطيل الشـكل ، شـديد الضيق على طوله . وكان — لولا نهايته المنظورة — يبدو كأنه نهر صغير . ونظرنا فى الأفق الخالى ، ثم شعرت بمعنى يتردد فى عينى صديقتى . وفهمت ما تريد ، وأجبت عليه بهزة نافية من رأسى .

— لا .. لا .. انتظرى ! .. لقد استقلت القارب .

فحدقت صاحبتى فى المرسى الخالى من قاربه ، ثم نفضت البحيرة بعينيها وقالت :

— أين القارب اذن ؟ .

— ان عدم رؤيتنا له هو أقطع دليل على ما أقـول ، لقد استخدمته للعبور ثم تمكنت من اخفائه .

— أكل هذا وحدها ؟ .. يالها من طفلة ؟ ! .

— انها ليست وحدها ، وانها فى هذه الأوقات لا تعدو طفلة ، وانما تصبح امرأة عجوزا طاعنة فى السن .

ورحت أتفحص الشاطىء قدر ما تسمح لى الرؤية ، بينما عادت مسز جروز الى الاستسلام من جراء هـذا الحديث العجيب الذى سقته اليها . فأوضحت لها أن لعل القارب قد أوى الى خليج من خلجان القرية يمتد عبر التضاريس التى يخفيها عنا ذلك النتوء من الشاطىء ، أو هذه الدوحة من الأشجار المتهدلة فى الماء . فسألتنى صديقتى فى قلق :

— ولكن اذا كان القـارب هنـاك ، فأين الفتـاة اذن بربك ؟ .

— هذا هو تماما ما علينا أن نعرفه .

ورحت أواصل السير ، فقالت :

— أتمشين هذه المسافة جميعها ؟ .

— طبعا ، فهى — وان تكن طويلة — الا أنهـا لن تستغرق أكثر من عشر دقائق ، ولكنها مع ذلك مسافة خليقة بأن تجعل الطفلة تؤثر القارب على السير فعبرت بهالبحيرة الى الشاطىء الآخر .

فصاحت صديقتى :

— أطبيعى هذا ؟ .

ولكن منطقى القوى أخذ بزمامها وسحبها فى أعقابىدون أن تحملها الظروف المحيطة بنا على العصيان . وكان سـيرنا عملية مرهقة تلتوى بنا المسالك على أرض وعرة مهشـمة تكتنفها الأحراش ، فما ان بلغنا منتصف المسافة حتى توقفت تلقف أنفاسها ، وسندتها بذراع شاكرة ، وأكـدت لهـا أنها ذات عون لى كبير . وهكذا استأنفنا سيرنا من جديد حتى لقد وصلنا فى بضع دقائق الى حيث رأينا القـارب ، وكان فى المكان الذى توقعت وجوده فيه . وقد تركعمدا . بحيث يستخفى تماما عن الأنظـار . وكان مشدودا الى عود من سياج ينحدر على الشاطىء فيعين منيشاء أن ينزلالى

القارب . وحين نظرت الى المجدافين القصيرين الغليظين وقد استقرا فى أمان على القارب أدركت أى عمل هائل قد قامت به هذه الطفلة . ولكننى كنت حينذاك وقد طال عهدى بالأهوال والعجائب . ولكننى مع ذلك لم أملك قلبى أن يطير شعاعا من أمور أخرى أشد جرأة واقداما . كان بالسياج باب كبير عبرناه فأفضى بنا الى خلاء ثم صحنا فى وقت معا .

— ها هى ذى .

فثمة على مقربة قريبة كانت فلورا واقفة أمامنا على الحشائش الخضراء ، تبتسم وكأنها كانت تقوم بدور بلغ نهايته ؟ .

وكان أول شىء فعلته أن انحنيت ألتقط حفنة كبيرة من نبات ذابل شائه المنظر خيل الى أنها لم تأت الى هذا المكان الا لتشوهه ؛ وتأكدت من فورى أنها قد جاءت من الأحراش لتوها . انتظرنا دون أن تخطو هى أية خطوة الينا ، واستشعرت الهدوء الرزين الذى أطبق علينا ونحن نقترب منها ، وراحت هى تبتسم وتبتسم حتى التقينا ، ولكن هذا اللقاء جميعه ضاع فى صمت حولنا ينذر بشر مستطير . وكانت مسز جروز أول من حطم هذا الصمت ، فقد ركعت محتوية الطفلة الى صدرها ، وأحاطت بجسمها الصغير الرقيق المستجيب فى عناق طويل .

ولم يكن بيدى الا أن أظل رانية الى هذا العناق المتصل ، وظللت أنعم النظر فى وجه فلورا وهى تنظر الى عبر كتف صديقتى . كان الجد مرتسما على وجهها وقد زايله الوميض، ولكن هذا لم يزدنى حسدا لمسز جروز فى لحظتى تلك على الرغم من علاقتها البسيطة بالصبية . ولم نتبادل من حديث طوال هذه الفترة الا أن فلورا قد أسقطت النبات الذابل على الأرض . ثم لم تقل هى ولم أقل أنا فما أصبح ثمة مجال لتعلل أو اعتذار . ونهضت مسز جروز على قدميها وقد ظلت يدها ممسكة بيد الصبية . ووقفت كلتاهما أمامى . وفى كلامنا الصامت تبينت التحفظ الشديد فى نظرتها الصريحة التى وجهتها الى وكأنى بها تقول لى : « الشنق أهون علىّ من الكلام » .

وكانت فلورا هى البادئة بالحديث وهى تنظر الى من أخمص قدمى الى رأسى فى عجب واضح وقد استرعى نظرها رؤيتنا حاسرتى الرأس ، قالت :

— ماذا ؟ أين أشياؤكم ؟ .

فأجبت على الفور :

— بل أين أشياؤك أنت يا عزيزتى ؟

وكانت قد عادت الى مرحها ، وبدا عليـها أنها اقتنعت باجابتى ، ثم راحت تسأل :

— وأين ميلز ؟ .

كان فى هذه الجرأة الصغيرة أمر أحسست أنه موشك بى على نهايتى . لقد أومضت منها هذه الكلمات وكأنها لمعة من سيف مسلول . وقبـل أن أتكلم أحسست أن الكأس الطافحة التى حملتها يداى طيلة أسابيع قد فاضت فى طوفان رهيب وقلت :

— سأجيبك اذا أجبتنى ..

سمعت نفسى أقول هـذا ، ثم سمعت الرجفـة التى قيل بها :

— ماذا اذن ؟ .

وكنت أتمنى لو لم تعلم مسز جروز بشىء ولكن هـذا لم يعد ممكنا الآن فقد فات الوقت ، فتسللت الى الموضوع بكياسة .

— أين مس جيسل يا عزيزتى ؟

الفصل العشرون

وقع الحديث علينا كما وقع من ميلز فى فناء الكنيسة ، ولما كان هذا الاسم لم يتردد بيننا فان وهج وجه الفتاة حين تلقت هذا الاسم أوحى الى أن خروجى عن الصمت كان أشبه بتحطيم لوح من زجاج . وخرجت الصيحة وكأنها صادرة لتوقف قذيفة يضاعف من هولها أن مسز جروز قد صرخت فى نفس اللحظة صرخة مذعور أو صرخة جريح ، بينما أردفت الطفلة بشهقة مختلطة الألوان وقد أمسكت بذراع زميلتى وصحت :

— انها هناك .. انها هناك .

لقد وقفت مس جيسل أمامنا على الشاطىء المقابل تماما كما وقفت فى المرة الماضية . انى لأذكر أمرا عجيبا ، لقد كان أول شعور أحدثته فى رؤيتى لها هو نشوة من سرور اننى أقدم البرهان شاخصا . انها هناك ، هناك تقف مؤكدة لعقيدتى ، انها هناك ، فما أنا اذن بالقاسية وما أنا بالمجنونة.

انها هناك من أجل مسز جروز المذعورة المسكينة ، وانها هناك من أجل فلورا أولا وقبل كل شيء . لا .. لم تمر بى لحظة من أوقاتى الرهيبة بلغت ما بلغته هذه اللحظة من غرابة، وقد ألقيت اليها برسالة صامتة تومىء بعرفان الجميل ، وقد خيل الى أن هذه الشيطانة — على سوئها — ستفهم عنى ما أريد . فانتصبت واقفة على البقعة التى تركتها أنا وصديقتى . ولكن رغباتها لم تكن تهفو الى غير الشر الجسيم . ولم يلبث هذا الوضوح للنظر والعاطفة غير بضع ثوان . أومأت خلالها ايماءة الى حيث أشرت لها . لقد رأت هى أيضا آخر الأمر ؛ فقد نقلت ايماءتها عينى الى الطفلة بسرعة . وأفزعنى مقدار تأثر فلورا فزعا أشد من ذلك الذى كان ينتابنى عند رؤيتها فى اضطرابها . فما كنت أتوقع أن أرى الحزن على وجهها . لقد كانت متأهبة محترسة مما أثارته مغامرتنا . فهى خليقة بأن تكتم شعورها فلا يبدو عليها منه شيء .وهكذا هزتنى نظرتى الأولى لهذا الشعور العجيب الذى ما كنت لأجيز المامه بها .فقد كان وجهها الوردى يبدو بلا نأمة أو خلجة ؛ وكانت تشيح بعينيها عن هذه الظاهرة العجيبة التى طالعتنا ، واكتفت بأن وجهت الى أمارات من الصلابة والجد كانت جديدة عليها كل الجدة . فما رأيتها

فى مثل حالها هذه من قبل ، وبدت وكأنها تريد أن تقـرأ أفكارى وكأنها تحللنى ،فوقع هذا منى موقعا شديدا مفزعا. بلغ عجبى مداه لهدوئها على علمى الواثق أنهـا ترى كل الرؤية . وشعرت بحاجة دافعة الى الدفاع عن نفسى فرحت أدعوها فى حماسة الى انعام النظر .

— انها هناك أيتها التعسة الصغيرة .. هناك .. هناك .. وأنت تعلمين ذلك تمام العلم .

قلت لمسز جروز منذ دقائق انها لاتغدو فى هذه اللحظات طفلة بل تصبح امرأة عجوزا طاعنة فى السن ، وما كان وصفى هذا لها ليجد برهانا أسطع من هذه الحال التى كنا فيها ، رغم ما لاحظته من مجابهتها لى بوجه عميق المعانى يتزايد عمقه .

كان فزعى من حالتها أشد هولا من أى فزع آخـر يواجهنى اذ ذاك ، وان كنت قد أدركت فى الوقت نفسه أن الى جانبى نصيرا قوى الأيد يمكن الركون اليه هو مسز جروز . على أن صديقتى لم يبد منها غير وجهها المشوب بحمرته . واحتجاجها بصوت زادت الصدمة من ارتفاعه ، فانفجرت تستنكر ما صرت اليه :

— ماذا دهاك بالله يا آنسة ؟ كيف ترين شيئا على الاطلاق .

ولم يسعنى الا أن أسارع فأمسك بها فقد كان الشبح الرهيب واقفا — حتى وهى تتكلم — فى جلاء ووضوح لا يستره دوننا شىء . وظل واقفا .. حتى وأنا أمسك بصاحبتى أدفع بها الى الشبح وأريها اياه مؤيدة قولى بالاشارة .

— أما ترينها كما نراها واضحة المعالم ؟ أتعنين أنك لا ترينها الآن ؟ انها كبيرة معلمة كالنار المشتعلة ، ما عليك الا أن تنظرى أيتها المرأة العزيزة .. انظرى .. ! ونظرت كما أنظر تماما ، وزمجرت زمجرة فيها النفى والاستنكار والاشفاق . وقد آلمنى هذا حتى فى لحظتى تلك ، فوددت لو أنها أعانتنى باذلة أقصى الجهد . ولعلنى كنت فى حاجةالى عونها ، فقد أصبت بصدمة شديدة ، وشعرت أنى فىموقف وعر حيث تأكد لى أنه لا رجاء فى أن تبصر عيناها .

شعرت .. بل رأيت سلفى شاحبة اللون لا يستقر بها قرار .. انها غريمتى ورحت أفكر أولا فيما ينبغى على أن أفعله منذ الآن ازاء موقف فلورا المذهل . وفجأة اقتحمت

مسز جروز هذا الموقف وقد داخل شعورى بالانحطام شعور غريب بالانتصار . فقالت تطمئننى لاهثة :

— انها ليست هناك يا سيدتى العزيزة ، ولا أحد هناك ، وأنت لا ترين شيئا يا عزيزتى كيف يمكن أن ترى مس جيسل بعد أن ماتت ودفنت ! ؟ اننا نعرف ذلك ،أليس كذلك يا حبيبتى ؟ .

ثم وجهت حديثها الى الصبية :

— ان الأمر كله مجرد غلط وقلق ودعابة .. وسنذهب الى المنزل أسرع ما نستطيع .

واستجابت رفيقتى لذلك فى تأدب أنيق ، وأمسكت كل منهما بالأخرى وكأنهما تتحديانى . وظلت فلورا تحدجنى بنظرات الكراهة ، حتى لقد ضرعت الى الله فى لحظتى تلك أن يسعنى برحمته . فقد خيل لى انى أرى فلورا واقفة هناك متشبثة بثوب صديقتى ، وخيل لى أن جمالها الغض الذى لا يضارعه جمال قد خبا ، بل خيل لى أنه قد اختفى . كانت على غاية من القسوة والرهبة وقد زايلها جمالها حتى لقد كادت تبدو دميمة . قالت :

—لا أدرك ما تقصدين اليه ، أنا لا أرى أحدا ، أنا

لا أرى شيئا ، وما رأيت قبل اليوم شيئا على الاطلاق . أظن أنك قاسية ، وانى لا أحبك .

كان هذا الحديث أخلق ما يكون بفتاة من الدهماء مأواها الطريق . ولكنها قالته وأسرفت فى عناق مسز جروز وغمرت وجهها المخيف الصغير فى ثوبها . وندت عنها من غمرتها تلك صرخة أليمة تكاد لا تصدر الا عن الوحوش .

— خذونى بعيدا .. خذونى بعيدا .. بعيدا .. أوه .. خذونى بعيدا عنها ...

فقلت وأنا أختطف أنفاسى :

— عنى .

فصاحت :

— عنك .. عنك .

نظرت الى مسز جروز فى ألم على حين لم أجد أمامى الا أن أعاود الاتصال بالشبح ، وكان على الشاطىء الآخر لا يتحرك ، مغرقا فى الجمود وكأنه ينسمع الى ما نقول من وراء هذا البعد . كان قائما هناك حين الكارثة أوضح مما بدا حين تلمست منه يدا . لقد تكلمت الصبية البائسة وكأنها تتلقى عن مصدر خارجى كل كلمة من كلماتها التى فعلت بى

فعل السيوف . وما كان بوسعى ازاء كل هذا اليأس الذى أحاط بى الا أن أهز رأسى لها أسفا . لو أن خاطرة شك خالجتنى لكانت جديرة أن تنصرف عنى الآن . لقد عشت فى الحقيقة التعسة . ثم ها هى ذى تحدق بى احداق السوار بالمعصم . قلت :

— لا شك أنى قد خسرتك .. لقد تدخلت .

ونظرت الى الشاطىء الآخر حيث تشهدنا الشيطانة واستأنفت حديثى :

— وأملت عليك ما تقولين . لقد أردت أن أسلك أقرب سبيل لأواجه تدخلها هذا . وقد بذلت قصارى جهدى . ولكنى خسرتك فوداعا .

أما مسز جروز فقد أمرتها فى حدة :

— اذهبى .. اذهبى .

وكانت فى بؤس بالغ . ولكن بهرها ما كانت الطفلة تعانيه فأذعنت وبدا منها أنها — وان كانت لم تر شيئا — قد أدركت أن أمرا رهيبا قد وقع وأن حدثا قد مزق ما بينى وبين الطفلة ، فعادت أدراجها الى المنزل بأسرع ما تطيق .

لم أذكر فيما بعد أول ما حدث لى حين خلفت وحدى ،

وكان ما أذكره أنه مضى بعض الحين ثم أحسست الرطوبة العفنة تبرد متاعبى وتتخللها حتى لقد اعتقدت أننى لابد قد ألقيت بنفسى على وجهى الى الأرض وأطلقت العنان لآلامى وأشجانى . ولا بد انى رقدت هنا طويلا أبكى وأتفجع ، لأنى حين رفعت رأسى كان النهار يكاد يؤذن بالانتهاء . فنهضت ونظرت برهة عبر غبشة الغسق الى البحيرة الغائمة وشاطئها الخاوى المسكون ثم أخذت سمتى الى المنزل فى كآبة ومشقة ، فلما بلغت بوابة السياج عجبت أشد العجب حين رأيت القارب قد بارح مكانه .فعدت أفكر كيف استطاعت فلورا أن تسيطر على الموقف هذه السيطرة العجيبة الخارقة . لقد أبرمت فى ليلتها تلك مع مسز جروز أمتع وفاق .

لم أر أية منهما حين عدت الى المنزل وقد أتاح لى ذلك أن أرى ميلز فترة طويلة من الزمان لم يتهيأ لى مثلها فى أى يوم من الأيام .

لم أقض فى بلاى ليلة أبعث على التشاؤم من هذه الليلة. ورغم ذلك ،ورغم هوة الذهول التى فغرت فاها تحت قدمى، فقد كان فى الواقع التعس تشاؤما حلوا بدرجة غريبة .

لم أبحث عن الصبى حين بلغت المنزل .وانما قصدت من فورى الى حجرتى لأبدل ثيابى وألمّ فى نظرة خاطفة بالشواهد المادية التى تثبت أن فلورا قد فصمت علاقتها بالمنزل . فقد اختفت مقتنياتها الصغيرة جميعا . وحين قدمت لى الخادم بالشاى فى حجرة الدرس بعد حين كنت غارقة فى التفكير فى أمر تلميذى الآخر ولكنى لم أشأ أن أستبين من الخادم شيئا .

لقد نال حريته الآن ، وقد يحظى بها الى النهاية .. نعم انه قد نالها . وكان معنى ذلك ، أو بعض معناه على الأقل أنه آت فى الثامنة ليجلس الىّ فى سكون . وعندما حملت عنى أدوات الشاى أطفأت الشموع وجذبت مقعدى الى مكان قريب من المدفأة فقد كنت أحس ببرد مميت خيل لى معه أنى لن أحس الدفء يوما . فلما بدا كنت أجلس الى أفكارى فى وهج المدفأة فتوقف هنيهة جوار الباب كأنما يريد أن يتملانى ، ثم بدا عليه كأنه يريد أن يشاركنى ما أفكر فيه فأتى الى الجانب الآخر من الموقد وجلس على مقعد وثير . وران علينا صمت مطلق . ولكنى شعرت أنه يريد أن يكون معى .

الفصل الحادى والعشرون

قبل أن يسطع نور اليوم الجديد فى حجرتى تفتحت عيناى على مسز جروز تحمل من الأنباء أشدها سوءا . ان فلورا على غاية من الاضطراب حتى لقد أصبح محتملا أن تصاب بمرض عما قريب ، فقد قضت ليلتها لا يقر لها قرار من القلق يؤرقها أول ما يؤرقها مخاوف لا تبتعثها الى نفسها مربيتها القديمة بل الحالية .. أنا . فهى لم تكن تخشى احتمال عودة مس جيسل الى الظهور . بل انها تأنف كل الأنفة أن ترانى . وما أسرع ما قفزت على قدمى وقد راحت آلاف الأسئلة التى أريد لها جوابا تدور بذهنى . خاصة وقد تبين لى أن صديقتى ستجمع الآن شجاعتها للقائى . تبين لى ذلك بمجرد أن سألتها عن مدى عمق العداوة التى تكنها الطفلة لى فقالت :

— انها تصر على أن تنفى لك أنها رأت شيئا أو سبق لها أن رأت أى شىء .

وكانت زائرتى فى مأزق حرج وهى تقول :

— آه يا سيدى . ليس بيدى أن أرغمها على شىء فى هذا الصدد ولكن يجب على أن أقول أيضا انه لا داعى الى ذلك . لقد استحالت الى امرأة عجوز فى كل صغيرة وكبيرة .

عجبا .. انى أستطيع أن أراها من هنا .. من حجرتى فى أتم وضوح ، وهى ترفض فى شمم حازم أن تتهم فى صدقها وما تعتده كرامتها .. وهمهمت :

— انها مس جيسل .. انها هى .

— بل انها كرامتها .

أستطيع أن أؤكد أن شعورى بما يخالجها كان أبعد عمقا من شعور الآخرين . فلقد أقحمت نفسى فى أسرارها ولن تخاطبنى بعد اليوم .

ورغم رهبة الموقف وغموضه فان مسز جروز لم تصمت الا فترة قصيرة ثم سلمت بوجهة نظرى فى صراحة كاملة وان أيقنت أن هذه الصراحة لها ما وراءها .. قالت :

— أظن يا آنسة انها لن تفعل ، فقد اعترتها حالة كبرياء .

نعم حالة كبرياء فهذه باختصار هى الحالة التى تعانيها الآن .

ومن وجه زائرتى ، لا من شىء آخر ، استطعت أن أقرا هذه الحالة واستطردت صاحبتى :

— انها تسألنى كل ثلاث دقائق ، هل أنت آتية أم لا ؟

— فهمت . فهمت .

وكنت من جانبى قد تعمقت الأمر جميعه الى بعيد جذوره سألت :

— هل ذكرت لك منذ الأمس كلمة واحدة عن مس جيسل .. هل ذكرت لك عنها شيئا فى غير الحديث الذى تنكر به أنها رأت مثل هذا الشيء الرهيب .

— ولا كلمة واحدة يا آنستى .. وأنت — لا شك — تدرين أننى صدقتها عند البحيرة لم تكن ترى أحدا حينذاك فى ذلك المكان .

— أحقا ؟ ! وهل ما زلت على تصديقك لها ؟ .

— انى لا أعارضها .. وماذا عساى أن أفعل غير هذا ؟

— لا شيء على الاطلاق ، لقد كنت تحادثين أمهر طفلة .. لقد صارا بفضل صديقيهما أمهر مما خلقتهما عليه الطبيعة ، على كرم ما حبتهما به هذه الطبيعة من مهارة لقد وجد الصديقان فيهما مادة رائعة لتعاليمها . وقد أصبح لفلورا ما تشكوه الآن ، وستواصل الشكاة الى النهاية .

— نعم يا آنستى ولكن الى أية نهاية ؟

— النهاية هى أن توقع بينى وبين عمها ، سترسمنى له فى هيئة أدنأ المخلوقات صـــورة . وانقبضت نفسى وأنا أقرأ خلجات كلامى على وجه مسز جروز حتى لكأنى بها وقد أصبحت ترى أربعتهم مجتمعين . قالت :

— وهو .. الذى يحسن بك الظن الى هذا المدى ..

— ان له طرقا عجيبة لاثبات ظنه الحسن .. وانى لأتمثلها الآن ..

ثم أردفت ضاحكة :

— لكن هذا لا يهم . ان ما تريده فلورا طبعا هو أن تتخلص منى .

وما أسرع ما قالت صاحبتى فى شجاعة .

— انها لن تطيق مجرد رؤيتك مرة أخرى .

فسألت :

— فاستعجال رحيلى اذن هو ما أتيت الآن من أجله .

وقبل أن يتسع الوقت لها أن تجيب سبقتها بالقول :

—انلدىّ فكرةحسنة انتهيت اليها بعد طولالتفكير. قد يبدو رحيلى هو المسلك الصحيح ، وقد كنت على وشك انتهاجه يوم السبت . ولكن هذا لا ينبغى لى أن أفعله بلان عليك أنت أن ترحلى وعليك أن تصحبى فلورا فى ارتحالك .

وراحت صاحبتى عندئذ تفكر فى عمق :

— ولكن الى أين .. الى أى مكان بالله عليك ؟

— الى بعيد .. بعيد عنهما . بل بعيد عنى قبل كل شىء .. الى عمها مباشرة .

— لمجرد أن نشكوك اليه ؟

— ليس لمجرد هذا ، بل لتتركانى أيضا أفرغ لدوائى.

والتبس عليها قولى فسألت :

— وما هو دواؤك ؟

— أولا ولاؤك . ثم ولاء ميلز .

فنظرت الى فى قسوة وقالت :

— هل تظنين أنه .. ؟

— أنه لن ينقلب على اذا تمكن من ذلك . نعم مازلت أستطيع أن أظن به هذا الظن . وعلى أية حال أريد المحاولة. خذى أخته عنى من هنا بأسرع ما يمكن . واتركينى وحدى معه .

وقد ملكتنى الدهشة أنا أيضا أننى وجدت نفسى لاتزال محتفظة ببقية من الشجاعة ، حتى لقد ازداد تبرمى حين أبانت لى عن ترددها بعد أن جعلت من نفسى مثلا يقتدى فى الحزم . واستطردت أقول :

— لكن هناك أمرا واحدا لابد من تحقيقه بطبيعة الحال . يجب ألا ينفرد أحدهما بالآخر مطلقا حتى ترحل .

ثم قفز الى ذهنى خاطر سريع برغم الحراسة التى تحيط بفلورا منذ عودتها من البحيرة .. لعل أوان الحذر قد فات ، فسألت فى قلق :

— أم أنهما قد التقيا ؟

فاحمر وجهها وهى تقول :

— لست يا سيدتى من الغفلة بحيث تظنين ! فقد كنت فى كل مرة أضطر فيها الى تركها أحرص على أن تكون مع احدى الخادمات وما تركتها الا ثلاث مرات أو أربعا . والآن — رغم أنها وحيدة — الا أن الباب موصد دونها . ومع ذلك .. ومع ذلك ! لقد وقع من الأحداث أكثر مما يطاق .

— ومع ذلك ماذا ؟

— سيدتى أواثقة أنت من السيد الصغير الى هـذا الحد ؟

— أنا لا أثق بشىء غيرك . لكن أملا جديدا داعبنى منذ ليلة أمس . يخيل لى أنه يريد أن يتكلم .. ففى الليلة الماضية، على ضوء المدفأة ، وسط الصمت ، جلس معى ساعتين .. كأنما كان موشكا على الافضاء .

فنظرت مسز جروز نظرة قاسية من النافذة الى الجـو الغائم وقالت :

— وهل أفضى ؟

— لا .. فرغم أنى انتظرت وانتظرت فانى أعترف بأنه لم يتكلم . ودون أن يتخلى عن صمته ، ودون أن يومى بأهون اشارة الى حالة أخته أو غيابها قبّل كل منا الآخر قبيل انصرافه الى النوم ، ومع ذلك فانى لا أستطيع تمكينها من رؤيته قبل لقـائها بعمها دون أن أهيىء للصبى مزيدا من الوقت .. خاصة وقد سارت الأمور الى هـذا المدى من السوء .

وبدا على صاحبتى أنها تمتنع عن الانقياد لرأيى فى هذا الصدد .

— ماذا تعنين بمزيد من الوقت .

— أعنى يوما أو يومين .. حتى أحمله على الحديث .. انه سيكون عندئذ فى جانبى وهذا مهم كما ترين .

— فاذا لم يتم لك ذلك ؟

— اذا لم يتم فليس أمامى غير الفشل ، وتكونين أنت — على أقل تقدير — قد عاونتنى بأن قمت عند بلوغك لندن بكل ما فى جهدك أن تقومى به .

هكذا أوضحت لها رأيى ، ولكنها لبثت هنيهة محيرة اللب تتنازعها أفكار أخرى كثيرة ،فعدت الى مساندتها قائلة وأنا أنهى الحديث :

—هذا بطبيعة الحال اذا لم تكونى راغبة عن الذهاب.

واتضحت حيرتهـا على وجهها آخـر الأمر ، فمدت يدها وكأنها تقطع عهدا .

— سأذهب . سأذهب . بل انى سأذهب هذا الصباح .

وأردت أن أكون فى غاية الانصاف لموقفها .

— اذا كنت لا تزالين راغبة فى المكث هنا فانى أعدك بأنها لن ترانى .

— لا .. لا .. ان المكان نفسه هو ما يجب أن تبرحه .

وأمسكت بى لحظة بعينين متقلبتين ثم أكملت حديثها :

— ان رأيك هو الرأى السليم . انى أنا يا آنستى ..

— ماذا ؟

— لا أستطيع البقاء .

وكانت النظرة التى أطلت من عينيها وهى تلقى بهذا القول تبيح لى أن أذهب مذاهب من الاحتمالات شتى :

— أتقصدين أنك منذ أمس .. قد رأيت .. ؟

فهزت رأسها فى كبرياء وهى تقول :

— لقد سمعت .. !

— سمعت ؟

— من الطفلة .. سمعت الأهوال ! .. هناك !

ثم تنهدت وكأنما تزيح عن نفسها أسى ثقيلا وهى تقول :

— أقسم بشرفى يا آنسة انها تقول كلاما ..

لكنها حين صرحت بذلك خارت منها القوى فاذا هى تهوى على أريكتى صارخة صرخة مفاجئة وقد أطلقت لمكبوت أشجانها العنان .

أما أنا فقد اتخذت وسيلة مختلفة كل الاختلاف للافراج عن كربى فقلت :

— حمدا لله .

فحين سمعت منى ذلك نهضت واقفة تجفف دموعها وقالت وكأنها تئن من الألم .

— كيف .. ؟ حمدا لله ؟

— لأن فى هذا ما يؤيد مسلكى .

— أترين هذا حقا يا آنستى ؟

ولم يكن الأمر فى حاجة الى مزيد من التأكيد ، ولكننى مع ذلك تريثت قبل أن أقول :

— أهى مخيفة الى هذا الحد ؟

ورأيت زميلتى تكاد تعجز عن الاجابة .

— مخيفة حقا .

— وفيما يتعلق بى ؟

— فيما يتعلق بك يا آنسة .. اذا أصررت على أن تعرفى .. انه .. انه أمر فوق طاقة سيدة صغيرة .. لا أستطيع أن أتصور المكان الذى تلقت فيه اللغة الرهيبة التى تتحدث بها عنك ؟ انى أستطيع اذن .

وندت عنى ضحكة حملت من المعنى ما أريد بلا شك ، ولكنها ألقت على صديقتى مزيدا من العبوس .

— ربما كان ينبغى لى أن أفهم ، فقد سبق لى أن سمعت عن هذا ! ولكن هذا فوق ما أحتمل .

واستدارت المرأة المسكينة لتمضى ، وبينما هى تتحرك ألقت بنظرة خاطفة الى نضدى ورأت الساعة :

— لكن ينبغى لى أن أعود .

غير أنى استبقيتها قائلة :

— اذا كنت لا تتحملين .. !

— كيف أستطيع اللبث معها . هل هذا ما تقصدين اليه ؟

لأخرجها من هنا .. بعيدا عن هذا .. بعيدا عنهما .. من أجل هذا فقط أمكث الى جانبها .

فأمسكتها وأنا أحس بشعور يكاد يكون سرورا :

— لعلها تتغير .. لعلها تتحرر .. ؟ اذن فأنت تصدقين بالرغم من أنك فى الأمس .. ؟

— فى مثل هذه الأمور ؟

وارتسم على نأمات وجهها وصف بسيط واضح للشبحين لم أكن معه محتاجة الى مزيد من الايضاح . فقد أباحت لى نفسها جميعا كما لم تفعل من قبل وقالت :

— انى أصدق .

لقد سررت فعلا أننا لا نزال متكاتفين . فاذا ظللت مطمئنة الى ذلك فأنا لا آبه كثيرا بما يحدث . فما دامت نصيرتى فى الأحداث ستظل قوية على عهدها ، وما دمت قد نلت منها الثقة التى كنت أهفو اليها أول أمرى ، وما دامت صديقتى قد آمنت بى ، فانى اذن كفيلة بالآتيات .

ولكنى لم ألبث أن استشعرت الحيرة حين ودعتها . قلت لها :

— ان ثمة أمرا واحدا لابد لى أن أذكره . ان خطابى سيكون النذير الذى سيسبقك الى المدينة .

وازددت شعورا بأنها كانت تكتفى بالتلميح دون التصريح وبأن هذا المسلك قد أرهقها آخر الأمر فقالت :

— لن يكون خطابك قد وصـــل ، بل ان خطابك لم يذهب على الاطلاق .

— ماذا حدث له اذن ؟

— الله وحده يعلم .. ان السيد ميلز ..

فسألتها فى أنفاس متقطعة :

— أتقصدين أنه أخذ الخطاب ؟

فارتبكت هونا ولكنها تغلبت على ارتباكها :

— أقصد أننى أمس وأنا عائدة مع مس فلورا لم أر الخطاب حيث وضعته أنت . وبعد ذلك — فى المساء — أتيحت الفرصة أن أسأل لوك فأجابنى انه لم يره ولم يلمسه .

ولم نستطع ازاء ذلك الا أن نتبادل ما نصل اليه من استنتاجات ، وسبقتنى مسز جروز الى الاستنتاج قائلة فى زهو :

— هل فهمت ؟

— نعم .. لقد فهمت .. اذا كان ميلز قد أخذه فالأرجح أنه قد قرأه ومزقه .

— وهل فهمت شيئا آخر ؟

فطالعتها منى ابتسامة حزينة خاطفة وقلت :

— يدهشنى أن عينيك الآن أكثر تعمقا للأمور من عينى .

وقد تأكد لها أنها كذلك ولكنها كانت لا تزال تخجل أن تظهر ذلك فقالت :

— انى أستطيع الآن أن أحرز ما فعله فى المدرسة من غير شك .

فأجابت فى لماحيتها الساذجة بايماءة فيها اذعان يمازجها شعور بخيبة الأمل .

— انه سرق .

فقلبت الأمر فى رأسى ، أحاول أن أكون أكثر انصافا وأجبت قائلة :

— ربما كان كذلك .

فنظرت الى وكأنما دهشت لهدوئى .

— لقد كان يسرق الخطابات .

لم تكن تعرف ما دعانى الى هذا الهدوء . انها لم تزل سطحية التفكير فى غير تعمق فأبنت لها ما استطعت سبيلا .

— أظنه كان يفيد من هذه الخطابات أكثر مما أفاد من خطابى ، فالخطاب الذى وضعت على المنضدة أمس لن يجد به شيئا لأنه لا يحمل غير طلب مقابلة ، واخاله يستحى أن

يمعن فى فعل مهين دون أن يفيد منه شيئا أو لا يكاد . لقد كان ما يدور بعقله ليلة أمس هو الرغبة فى الاعتراف ولا شىء آخـر .

وخيل الىّ فى هاته اللحظة أننى قد أحطت بالأمر جميعه خبرا فقلت :

— اتركينا .. اتركينا .

وكنت عند الباب أتعجل مبارحتها . وأردفت قائلة :

— سأفهم منه الأمر جميعا .. سيلقانى .. سيعترف .. واذا اعترف فقد نجا .. واذا نجا .. ؟

— نجوت أنت أيضا .

وحينئذ قبلتنى المرأة المخلصة فرددت عليها تحية الوداع.

— سأنقذك دون حاجة اليه .

هكذا صاحت وهى تنصرف .

الفصل الثانى والعشرون

ألا ان المتاعب الحقــة لم تطالعنى الا بعــد رحيلها .. ألا ما أسرع ما افتقدتها فان أكن قد علقت الآمــال على ما سأكسبه من الانفراد بميلز ، الا أننى سرعان ما أدركت أن أهون وصف لهذا الانفراد هو أنه عقاب لى .

لم تروعنى ساعة بالمخاوف مثلما روعتنى تلك الساعة التى سمعت فيها أن العربة التى تقل مسز جروز وتلميذتى الصغيرة قد غادرت أبواب القرية .فوجدتنى أقول لنفسى انى قد أصبحت الآن وحدى أمام القوى الخفية .وانقضى مابقى من يومى وأنا أصارع ضعفى ، حتى لقد خطر لى أننى قد تسرعت فيما أبرمت من قرارات . وشعرت أن المكان قد ضاق عن عهدى به . وزاد هذا الشعور فى نفسى أننى تبينت لأول مرة على وجوه الآخرين من المقيمين به خلجات شتى عن

أفكار تختلط فى رءوسهم عن الأزمة التى تجتاحنا . وكان من الطبيعى أن تثور دهشتهم لما يحدث حولهم . فما أهون الأسباب التى كانت بادية لهم عن السرعة التى رحلت بها زميلتى . وهكذا كانت أمارات الحيرة ترتسم على وجوه الخدم فكان هذا يزيد أعصابى رهقا على رهقها ، فلم يعصمنى من الانحطام التام الا تشبثى بأن أظل ودفة الموقف بين يدى .

ولا بد لى من القول ان اعتصامى من الانهيار كان يحتم على فى هذا الصباح أن أصطنع الكبر والجفاء .

أدركت أن واجباتى قد تعاظمت ، ورحبت بتعاظمها . فجعلتهم جميعا يعرفون اننى حين أنفرد بالبيت فانى أكون على غاية من الحزم . وبهذه الروح رحت أتجول طيلة الساعة أو الساعتين اللتين أعقبتا الرحيل فى كل أرجاء المنزل . ولا شك أننى كنت أبدو وكأنى على أهبة لأى هجوم . وهكذا رحت أعرض شجاعتى بقلب كسير على من يعنيهم الأمر .

وما ان حل موعد العشاء حتى أدركت أن أقل الناس عناية بالأمر هو ميلز الصغير نفسه . ولكن هذا التجوال أوضح للآخرين جميعا ما طرأ على علاقتنا من تغير وما دروا أنه نتيجة لغدره بى فى الأمس عند البيانو من أجل فلورا . وقد أصبح الموقف معروفا للجميع بعد أن اعتكفت فلورا حتى

ارتحلت ، وبعد أن ظهرت بوادر التغير فى الخروج عن مألوفنا فى حجرة الدرس . كان قد اختفى تماما حين اقتحمت باب غرفته وأنا أهبط الدرج . وعلمت فى الطابق الأسفل أنه قد تناول فطوره بمشهد من خادمتين مع مسز جروز وشقيقته .

وكان قد خرج للنزهة أو هكذا قال . ولم يكن هناك تعبير أوضح من هذا عن الحالة التى انتهت اليها مهمتى من تغيير .

ولم أكن بعد قد حددت تلك المهام التى لابد لى أن أقلص عنها سلطتى ، غير أننى أحسست براحة عجيبة وقد تخليت عن مهمة منها واحدة . فما دام قد وضح لهم ما وضح فلا مناص من الاعتراف أن أهم ما استبان عنه الموقف أن مواصلة قيامى بتعليمه لم يكن منى الا زعما سخيفا .

ولقد ظهر أنه ببعض وسائله الصامتة الصغيرة كان أكثر منى حرصا على كرامتى . وهكذا أعفى أعصابى من لقائى لقاء تلميذ لأستاذه . وعلى أية حال فهو الآن متمتع بحريته فما أصبح لى أن أعود الى المساس بها .

حتى اننى حين لقيته فى حجرة الدرس فى الليلة الماضية لم أنكشف له عن أى تحد أو نقد .

شغلت عنه كل الشغل بأفكارى الأخرى منذ هذه اللحظة ولكنه حين عاد آخر الأمر تبين لى الى أى مدى يصعب على تطبيق آرائى ، وقد ازدادت مشـــكلاتى تراكما ، واستطار تأثيرها على نفسى فى وجود شخصه الجميل الصغير ولكنى أبيت لأى من هذه المشاعر أن يبدو على .

ولكى أظهر فى المنزل الروح العالية التى واتتنى أمرت أن تقدم لى وجبات الطعام مع الصبى فى الدور الأسفل . وهكذا كنت أنتظره فى الحجرة الفاخرة التى طالعنى من نافذتها ذلك الوميض الذى لا أطيق أن أسميه ضوءا فى يومى الأول .. يوم الأحد المروع .

وهنا وفى هذا الوقت شعرت من جديد — وقد طالما شعرت بذلك — الى أى مدى كان توازنى يعتمد على ارادتى الصلبة .فقد صممت تصميما حاسما على اقفال عينىّ اقفالا محكما أن تعود تلك الحقيقة الى مرآى .. ان الذى لابد لى من مواجهته هو شىء خارق للطبيعة .. وكنت خليقة أن أمضى طريقى بأن آخذ الطبيعة الى جانبى ، وذلك حين أفسر محنتى القاسية على أنها اندفاع غير عادى وغير سار بطبيعة الحال . وأن ألتمس مع ذلك العـــدل والانصاف حين يدور لولب الفضيلة البشرية دورة جديدة .

وليس فى الوجود محاولة تحتاج الى كياسة قدر ما تحتاج محاولة التفسير الطبيعى الكامل للموقف . كيف أستطيع أن أقيم صلة بين أيسر قدر من الطبيعة وبين ما حدث ومن جهة أخرى كيف أستطيع أن أقوم بالتفسير دون أن أغرق فى لجة من السر الرهيب ؟ حسنا ، أنى بعد مرور بعض الحين قد اهتديت الى نوع من الاجابة ، وقد تأيدت اجابتى حتى الآن بما لمحته على صاحبى الصغير مما كان لايبدو عليه الا نادرا . وكما استطاع أن يحضر الدرس استطاع الآن أن يجد طريقا مهذبا آخر ليبعث فى نفسى الطمأنينة . ألم يكن هنا ضوء فى تلك الحقيقة التى أشرق علينا لألاؤها ونحن فى وحدتنا ؟ أليس من الحمق مع طفل موهوب كهذا — وقد واتت الفرصة السانحة — أن أهمل العون الذى يمكن للمرء أن يحصل عليه من الذكاء المطلق . فما جدوى ذكائه اذن ان لم ينقذه ؟ ألا يجوز أن تعترض المرء الذى يروم الحصول على عقله ذراع صلبة تذود نفسه عن نفسه ؟ وخيل الى حين كنا وجها لوجه فى حجرة الطعام أنه يكاد يطردنى ، كدت أتخلى عن مكانى بينما وقف ميلز ويداه فى جيوبه ناظرا الى شريحة اللحم على المائدة يكاد يصدر عليها حكما ساخرا ولكنه قال من فوره :

— أقول يا عزيزتى .. هل هى حقا مصابة بمرض خطير ؟

— فلورا الصغيرة؟ ليس بالغ الخطر ، انحالتها ستتحسن عما قليل .. ستبرئها لندن من دائها . لم تعد بلاى تلائمها . تفضل ، خذ شريحتك .

فأطاعنى فى الحال وحمل الطبق فى عناية الى مقعده حتى اذا استقر فى مجلسه مضى يقول :

— هل توقفت بلاى عن أن تلائمها هكذا دون سابق انذار ؟

— ليس دون سابق انذار كما تظن ، لقد كنت أرى حالتها تسوء من يوم الى يوم .

— اذن لماذا لم تبعديها عن بلاى قبل ذلك ؟

— قبل ماذا ؟

— قبل أن يقعد بها المرض عن السفر ؟

فوجدتنى أقول فى الحال :

— لم يقعد بها المرض عن السفر ، ولكن كان يمكن أن يحدث ذلك لو أنها لبثت هنا . لقد أنقذتها فى اللحظة الحاسمة ولسوف تبدد الرحلة الأثر السيىء وتقضى عليه .

لكم كنت رائعة . وكان ميلز أيضا على غاية من الروعة وهو يقول :

— نعم .. لقد فهمت .

وأقبل على وجبته مراعيا أدق أصول المائدة الأمر الذى أعفانى منذ وصوله من توجيه أية ملاحظة اليه فى هذا الشأن ، فمهما يكن سبب طرده من المدرسة فانه على أية حال لم يكن اخلاله بآداب المائدة . كان على عهده من التزام الآداب كلها . لكنه كان من غير شك أكثر وعيا . لقد كان يبدو عليه بوضوح أنه يحاول التسليم بأغلب الأمور فى سهولة وفى غير تطلب للمعونة . ولاذ بالصمت الأمين مفكرا . ولم تستغرق الوجبة غير برهة وجيزة . أما أنا فقد كنت أستتر بتظاهرى ولا أزيد . وسرعان ما أزيحت أدوات المائدة . بينما عاد ميلز الى الوقوف وعادت يداه الى جيبيه وقد أولى الباب ظهره .

وظللنا على صمتنا بمشهد من الخدم وكأنما نحن زوجان فى رحلة شهر العسل يغشاهما الخجل على مرأى من خادم الفندق . ولم يلتفت الى الا حينما خرجت الخادم .

— اذن نحن الآن بمفردنا ؟

الفصل الثالث والعشرون

— على انفراد الى حد ما .

ويخيل لى أننى قلت هذا بابتسامة باهتة ، واستأنفت حديثى :

— لسنا بمفردنا تماما . فما نحب ذلك .

— لا .. أظن أنه لا ينبغى لنا ذلك . معنا الآخرون طبعا .

ورحت أردد قوله :

— معنا الآخرون .. فعلا معنا الآخرون .

فأجابنى وهو ما يزال واقفا أمامى ويداه فى جيبيه .

— ولكن ، مع أنهم معنا الا أنهم لا يهمون ، أتراهم يهمون كثيرا ؟

وبذلت جهدى حتى أفهم عنه ما يقصد اليه ولكننى لم أزد عن أن شعرت أننى غدوت شاحبة اللون .

— ان هذا يتوقف — الى أبعد حد — على ما تعنيه .

فقال بمنتهى الصراحة :

— نعم ، كل شيء يتوقف على شيء .

غير أنه عند ذلك نظر الى النافذة ثانية ثم سرعان ما بلغها بخطاه المضطربة الحائرة الهادفة . ولبث هناك برهة وجبينه لاصق بالزجاج يتأمل الشجيرات الغبية التى أعرفها يحيط بها نوفمبر الكئيب . وكنت أحاول دائما أن أتشاغل عنه ، فرحت أجاس على الأريكة فى غمرة من هذا التشاغل ، وثبت نفسى الى مجلسى بها كما كنت أفعل فى لحظات التعذيب التى كنت أصلاها حين أدرك أن الطفلين منشغلان عنى بشيء محظور علىّ أن أراه . ووطنت نفسى — على عادتى — أن أحتمل أسوأ الفروض . ولكن احساسا عجيبا غمرنى حين أوحى الى ظهر الصبى معنى معينا . كان هذا الاحساس هو أن ذلك الحظر قد رفع عنى الآن . ونما هذا الاحساس فى دقائق بالغا أشده من اليقين ، وبدا لى أنه يرتبط بادراك مباشر آخر أن الحظر أصبح مفروضا على الصبى ذاته . وبدا لى أن اطارات النافذة الكبيرة ومربعاتها تصور لنا نوعا من الفشل . فقد خيل الى أننى أراه محبوسا أو مبعدا . كان جديرا بالاعجاب ولكنه لم يكن جديرا بأن يبعث الراحة الى نفسى .

كذلك شعرت فى ومضة من ومضات الأمل . أليس يبحث من خلال الزجاج المسكون عن شيء لا يستطيع رؤيته ؟ أليست هذه هى المرة الأولى .. الأولى .. وكانت نذير شؤم كبير . فهو قلق وان كان لا ينى عن مراقبة نفسه . بل لقد كان قلقا النهار كله . حتى لقد كان فى أشد الحاجة الى كل عبقريته الصغيرة العجيبة ليستطيع التمويه على وهو جالس أمامى الى المائدة بطريقته الحلوة البسيطة . وحين أدار وجهه آخر الأمر ليرانى بدا وكأنما عبقريته قد زايلته . قال :

— يسرنى أن بلاى تلائمنى .

فرحت أقول فى شجاعة :

— لقد بدا عليك أنك خلال هـذه السـاعات الأربع والعشرين قد رأيت أكثر مما رأيت فى ساعات حياتك جميعا. أرجو أن تكون قد استمتعت بما رأيت .

— أوه .. نعم .. لقد كنت دائما بعيدا .. بعيدا غاية البعد : كان كل يومى تجوالا على مبعدة أميال وأميـال فما أحسست قط هذه الحرية التى كانت لى اليوم .

كانت له طريقته الخاصة فلم أستطع الا أن أجاريه فيها .

— فهل تحبها اذن ؟

فوقف ثمة باسما ، ثم قال أخيرا :

— أتحبينها أنت ؟

لم أسمع كلمتين قط تحملان من الاتهام قدر ما تحمل هاتان .

ولكن قبل أن يتاح لى وقت للاجابة واصل هو حديثه وكأنه يريد به أن يخفف من وقع اهانة .

— ليس أمتع من الطريقة التى تسلكين بها فى هذا الأمر . فان نكن الآن فى وحدة ، فأنت أكثرنا معاناة للتوحد . انى لأرجو ألا تكترثى بهذا .

فسألت :

— أتقول هذا من أجل معاملتى لك ؟ أى طفلى العزيز، كيف لى ألا أكترث . فان أكن قد أصبحت وليس لى الحق فى صحبتك — لشدة ما تباعد بينى وبينك — الا أننى على أية حال أستمتع بصحبتك غاية المتعة . أترى ثمة سببا آخر يحملنى على البقاء هنا .

فصوب الى نظرة صريحة واتخذ وجهه ملامح أكثر عبوسا فكان الجمال الذى فاق ما عهدته فيه .

— هل بقاؤك لهذا السبب وحده ؟

— بكل تأكيد ، وانى أقيم هنـا كصديقة لك ، لعظم شغفى بك وهأنذى مقيمة حتى يمكن أن يتاح عمل شىء لك أكبر قيمة مما تعمـل الآن . وأرجو ألا يكون فيما قلت ما يدهشك .

وارتعش صوتى فلم أطق أن أخفى الرجفة فيه ورحت أقـول :

— أما تذكر ليلة العاصفة ، حين أقبلت اليك وجلست على سريرك وأخبرتك أنى مستعدة لأية تضحية فى سبيلك .

كان فى تهيبه المتزايد مضطرا الى السيطرة على نغمة صوته وقد كان فى ذلك أنجح منى بكثير حتى لقد استطاع أن يتظاهر بالمزاح ضاحكا من خلال صرامته وهو يقول :

— نعم .. نعم .. كان هـذا جميعه — فيما أظن — لتدفعى بى الى أن أصنع لك شيئا فسلمت بما قال وانى أجيبـه :

— كان لحملك على أن تصنع لى شيئا ، ولكنك تعلم أنك لم تصنع لى هذا الشىء .

فقال فى تلهف هين بهيج :

— نعم .. لقد أردتنى على أن أقول لك شيئا .

— هذا حق ، فهات ما عندك اذن .

— اذن فهل هذا هو سبب بقائك هنا ؟

كان يتكلم فى مرح لم يخل من رجفة كره ، ولكنى مع ذلك تماسكت أن يبدو عن ثائرى أية نأمة فيها استسلام مهما يكن هينا . وكأنى بالذى كنت أهفو اليه قد جاء أخيرا ليبعث فى نفسى الدهشة حين قال :

— نعم .. انى قد أفضى لك بما فى نفسى ، فقد كان هذا هو مقصدى ولا شىء سواه .

وانتظر طويلا حتى خيل الى أنه يحاول أن يكذب فى نفسه الافتراض الذى أقامه عن سبب تصرفى نحوه ، ولكن ما قاله آخر الأمر لم يعد :

— هل تقصدين الآن .. هنا ؟

— ليس من زمان فى الوجود أو مكان أصلح من الآن وهنـــا .

فراح يتلفت حواليه فتولانى احساسى النادر العجيب بهذه البوادر التى تطالعنى من وجهه ، بوادر شعوره باقتراب الخوف الداهم .. لكأنما قد انتابه شعور مفاجىء بالخوف منى فخيل لى أن هذا هو خـــير طريق أسلكه لأحمله على

الكلام . ولكنى شعرت أثناء محاولتى الأليمة أنه لا فائدة ترجى من اصطناع الصرامة ، وسمعت نفسى فى اللحظة التالية وقد بلغ صوتى من الرقة مبلغه وأنا أقول :

— هل تريد اذن الرحيل ثانية ؟

فكدت بذلك أن أكون غـاية فى الغرابة . فقال وهو يبتسم فى بطولة :

— أريد الرحيل .. أريده جدا .

وزاد تأثرى بشجاعته حمرة علت وجهه من ألم وحزن . والتقط قبعته التى كان قد أتى بها معه وراح يديرها بأصبعه فى سرعة غريبة حتى لقد شعرت شـعورا آخذا بالرغبـة فيما أفعل رغم اقترابى مما كنت أنشده . لقد أحسست أن عملى — على أية حال — عدوانى ، لايعدو الحاحا ثقيلا بفكرة فيها نيل وفيها تهمة لمخلوق صغير لا حول له ولا قوة . كان بالنسبة لى مثالا رائعا لما قد ألاقيه من صحبة جميلة . أليس من الخسة أن أثير فى كائن رائع هذه الروعة ارتباكا يخرج به عن طبيعته . لعلى الآن أتعمق موقفنا فى وضوح لم يتهيأ له فى ذلك الحين . حتى لقد خيل الى أنى أرى أعيننا وقد أومضت ومضة تنبىء بالآلام الآتية. وهكذا كنا نلوب حول

المخاوف والشكوك دون أن نجرؤ على حسم الأمر فيها . ولكن خوف كل منا لم يكن الا على الآخر . وهكذا طالت بنا مدة الانتظار شيئاما وتأجل وقوع الأذى .قال ميلز:

— سأخبرك بكل شيء . أعنى بكل شيء تريدين أن تعرفيه . ستمكثين معى وسنكون بخير وسأبوح لك حتما .. ولكن ليس الآن .

— ولماذا ليس الآن ؟

فصرفه عنى اصرارى ، وأعاده ثانية الى نافذته فى سكون تام كنت تسمع فيه دبيب النملة ، وفجأة رأيته يقف أمامى مرة أخرى وقد اتخذ سمت الشخص الذى ينتظره خارج المنزل ، وقد كان سمت شخص يعتد به وقال :

— لابد لى أن أرى لوك .

لم أحسب أنه قادر على هذه الأكذوبة الرخيصة . فخجلت لها خجلا يتناسب ورخصها . ولكن العجيب أن أكاذيبه هيأت لى أن أصل الى الحقيقة . فظلت بتفكيرى بعض تقدم فى استنتاجى .

— اذن اذهب الى لوك ، وسأنتظر ما وعدت ، ولكنى

فى مقابل ذلك أرجوك قبل خروجك أن تجيب لى التماسا صغيرا جدا .

فبدا عليه شعور بالانتصار جعله يظن أنه قادر على بعض مساومة .

— صغير جدا ؟

وكنت مشغولة بما أريد بلوغه فقلت بلا تدبر :

— نعم صغير .. مجرد بعض من كل .. أخبرنى بعد ظهر أمس من فوق المنضدة بالردهة ... هل أنت من أخذت خطابى ؟ .

الفصل الرابع والعشرون

أصابنى استقباله لسؤالى بشعور لم أستطع أن أدرك فيه الا أنه انشطار وحشى لنفسى ... ضربة جعلتنى لأول وهلة أقفز على قدمى وأتحرك حركة عمياء لأمسك به ، وجذبته الىّ بينما تهاويت من الاعياء على أقرب قطعة من الأثاث الى، وحرصت على أن أجعل ظهره الى النافذة فلا يراها .

لقد طلع علينا ذلك المشهد الذى كان لابد له أن يجذبنى اليه .. الآن .. هنا على مدى البصر منّى ، بيتركوينت كأنه الحارس أمام السجن ، وما لبث أن بلغ النافذة ، وأدركت أنه قد راح يطل من زجاجها مرة أخرى بوجهه اللعين . وما أسرع ما جعلتنى رؤيته أتخذ قرارى حاسما من فورى . وما أظن أن امرأة أخرى غلبت على أمرها على هذا النحو تطيق أن تسترجع قدرتها على العمل بهذه السرعة . لقد خطر لى فى دوامة الهلع من اقتراب كوينت أن واجبى هو حماية الصبى أن يدرك ذلك مهما يكن ما أواجهه وما أراه .

وكان شعورى بأننى أستطيع ذلك فى حرية وانتصار الهاما لا شك فانى لا أجد له اسما آخر . كأنى كنت أذود الشيطان عن روح من البشر . وحين استقر هذا المعنى فى نفسى تبين لى أن هذه الروح من البشر وقد أحطتها بيدين مرتعشتين أصبحت وقد علاها الندى من العرق يتفصد من جبين الطفل الحبيب . كان الوجه القريب الى فى بياض الوجه المطل من الزجاج . وسرعان ما ند عنه صوت ليس بالخفيض ولا هو بالواهن وانما كان يبدو أنه آت من بعيد كما تتهادى نسمة من العطر.

— نعم لقد أخذت الخطاب .

وعندئذ احتويته بين ذراعى فى همهمة فرحانة . وبينما هو على صدرى يرتجف فأحس فى رجفته وجيب قلبه الصغير صاخبا ، ظل بصرى معلقا بذلك الشىء الذى يبدو من النافذة فرأيته يتحرك مغيرا من وجهته . شبهته بحارس السجن ... لقد كان كذلك ولكنه بدا لى هنيهة فى حركته البطيئة كتسلل الوحش المتربص حيل بينه وبين فريسته الا أن شجاعتى التى واتتنى والتى توطدت دعائمها حثيثا لم تتح لى أن أمنعه من الدخول ، وان تكن قد أتاحت لى أن أذود عن شمعتى أن تنطفىء . وفى هذه الأثناء عاد وهج الوجه الى الظهور بالنافذة . لقد صمم المخاتل على أن يرقب وأن ينتظر . وحملنى

على المضى فى عزمى ثقتى أننى أستطيع الآن أن أتحداه ، وثقتى فى لحظتى تلك أن الطفل لا يدرك مما يجرى شيئا .

— ولماذا أخذت الخطاب ؟

— لأعلم ما تقولينه عنى .

— هل فتحت الخطاب ؟

— نعم فتحته

وكنت أنعم النظر فى وجه ميلز وقد تبدد عن الموقف ما تغشاه من سخرية . فرأيت كيف يؤدى القلق الى الدمار غاية الدمار . نجحت به آخر الأمر فى أن ألغى حواسه وأقف اتصاله بما يسيطر عليه من الأعاجيب الخارقة ... كان يعلم انه فى حضرة الشبح وان كان لا يعلم أى شبح . وكان أشد جهلا بأنى أنا أيضا كنت فى حضرة الشبح وأنى رأيته . وما يجدى هذا العناء ما دمت قد عاودت النظر الى النافذة فلم أر الا الجو يصفو وقد زايله الأثر الكريه بفضل ما حققته من انتصار . لا شىء هناك . شعرت أننى أنا من أزلته ، وأننى قد أصبح من حقى أن أنال ما أريد من معلومات وأبنت عن ابتهاجى بأن سألته :

— ألم تر شيئا ؟

فأومأ برأسه أشد الايماءات حزنا وأكثرها عمقا وأبلغها ايجاعا وقال :

— لا شيء

فكدت أصرخ من فرحتى :

— لاشيء ... لا شيء

فكررها فى حزن :

— لا شيء .

فقبلت جبينه الغارق فى العرق .

— اذن ماذا فعلت بالخطاب ؟

— أحرقته .

لقد واتت الفرصة التى لن تعود .

— أحرقته ؟ هل هذا ما كنت تفعله بالمدرسة ؟

وطالعتنى أفجع النتائج من هذا السؤال :

— فى المدرسة ؟

— هل كنت تأخذ الخطابات ؟ أو غيرها من الأشياء ؟

— غيرها من الأشياء ؟

كان يبدو لى أنه يفكر فى شيء بعيد لايطيق أن

يصل اليه الا اذا شحذ له قوته القلقة جميعا ، ولكنه وصل اليه متسائلا :

— أتعنين أنى كنت أسرق ؟

فشعرت بحمرة الخجل تسرى فى أطرافى جميعا ، عاجبة أن يواجه سيد من السادة المهذبين بهذا السؤال ، وأن يرى وهو يلقاه فى هذا التسامح الذى يكشف عن مدى ما تردى اليه فى الحياة .

وعدت أسأل :

— أمن أجل هذا لا تستطيع العودة الى المدرسة ؟

ولم تغشه الا دهشة صغيرة خاوية محجوبة وقال :

— أتعرفين أننى لا أستطيع العودة ؟

— انى أعرف كل شىء .

وحدجنى بأكثر النظرات طولا ، وأشدها عجبا وقال :

— كل شىء

— كل شىء ... اذن هل كنت ... ؟

لكنى لم أستطع أن أكرر الكلمة بينما استطاع ميلز فى بساطة :

— لا . لم أسرق .

ولا شك أن وجهى أبان له أنى أصدقه كل التصديق ، وان تكن يداى قد هزتاه فى رفق به خالص ، وكأنى كنت أسأله لماذا قضى على بشهور من العذاب مادام شىء لم يحدث.

— اذن ... ماذا فعلت ؟

فأدار بصره فى ألم دفين بسقف الحجرة جميعا ، ولقف أنفاسه مرة أو مرتين فى صعوبة ، وكأنه واقف بقاع بحر يرفع عينيه الى ضوء أغبر متهافت :

— كنت أقول أشياء .

— فقط ؟

— اعتبروا هذا كافيا .

— لفصلك ؟

الحق أنه لا يوجد شخص مفصول لا يبدو عليه ما يبرر فصله كهذا الصبى الصغير . وخيل الى أنه يحاول أن يزن سؤالى ولكن فى عجز وفى غير تمكن :

— لعلى لم يكن ينبغى لى أن أفعل .

ولكن لمن قلت هذه الأشياء ؟

كان من الجلى أنه يحاول أن يذكر فتخونه الذاكرة :

— لست أدرى ..

كانت محنته قد اكتملت ، وكان فى غمارها يبتسم لى فكان يجدر بى أن أقف بالأمر عند هذا ، ولكن نشوة النصر فتنتنى عن نفسى ، فأصبح الجهد فى تقريبه الىّ يزيد شقة البعد بيننا . سألته :

— هل قلتها للجميع ؟

— لا ... فقط لـ ...

الا أنه هز رأسه هزة هينة مريضة :

— أنا لا أذكر أسماءهم .

— أهم كثير ؟

—لا .. كانوا قلة .. انهم قلة من أحببتهم .

من أحبهم ؟ يبدو لى أننى لا أسلك الى الوضوح بل أتخبط فى الغموض والاظلام . وتولانى فى غمرة شفقتى عليه فزع أن يكون قد أخذ ظلما . كان الأمر فى هذه اللحظة مختلطا لا قرار له . فان يكن بريئا فماذا أكون أنا ؟

خارت قواى لهـذه الخاطرة ، فأطلقت ذراعى هونا ، فابتعد عنى ثانية فى تنهد عميق . فلما ولى وجهـه صـوب الشباك الخالى شقيت بشعورى أننى لم أعد أذود عنه شرا ، واستأنفت الحديث بعد لحظة :

— وهل نقلوا ما قلته ؟

فسارع عنى مبتعدا ، وهو لا يزال يجتذب أنفاسه فى جهد ، فيبدو كسجين رغم ارادته دون أن يعتريه غضب . وعاد ينظر الى الجو المعتم وكأن الدعائم النفسية التى يرتكز عليها قد تهاوت دونه لم تخلق الا قلقا يمز على الرصف ، الا أنه أجاب قائلا :

— نعم . لابد أنهم نقلوا ما سمعوا الى من يحبون .

ولم تردنى اجابته عما كنت أتوقع من معلومات . ولكنى أغضيت وقلت :

— وهذه الأشياء وصلت ...

فأجاب بمنتهى البساطة :

— للمدرسين ؟ نعم . ولكنى ما كنت لأعلم أنهم سيقولون ...

— المدرسون ؟ ... انهم لم يفعلوا ... لم يقولوا شيئا على الاطلاق ولهذا أسألك ، فالتفت الى ثانية بوجهه الصغير الجميل المحموم :

— نعم لقد كان خطأ بالغا .

— خطأ بالغا ؟

— ما لعلى كنت أقوله أحيانا ... ارسال خطـاب الى الأسرة ...!

لا أجد وصفا لما بثه هذا التناقض فى الحديث بنفسى من الأسى والرحمة . وانما أعلم أننى فى اللحظة التالية وجدتنى أندفع قائلة :

— لغو وهراء ... لغو وهراء .

ثم لم ألبث أن قلت فى شدة وصرامة :

— ما هى هذه الأشياء ؟

وكأن صرامتى كانت القـاضى ، أو كأنها الجـلاد ، ولكنها جعلته يمتنع عن الكلام . فانتفضت عنـه . فى قفزة واحدة وأنا لاأستطيع أن أكبت صياحى. لقد عاد أصل بلائنا وشقائنا الى الظهور من الزجاج وكأنما يريد أن يمحو اعترافه ويقف به عن الاجابة .... ظهر الوجه الأبيض اللعين ، فغمرنى الحـزن وتراءت لى انتصاوتى وهى تنهـار فكانت قفزتى الوحشية تعبيرا ضخما عن هذه المشاعر . ولقد رأيته حين قفزت يستقبل تصرفى بمنتهى التبجيل وأدرك أنذلك الشىء الذى كان يحسه بالحدس والتخمين قد أصـبح موجودا ، وان تكن النافـذة ما زالت خالية أمامه . فألهبت حماستى

لتحيل عميق أخزانه الى براهين ناصعة انه قد تخلص مما كان يغشاه .

— لا تزد . لا تزد . لا تزد .

هكذا صحت بزائرى وأنا أحاول أن أحتوى الطفل فى صدرى .

— هل هى هنا ؟

بذلك لهث ميلز وهو يرمى ببصره المذهوب الجهة التى أصيح اليها ، ولكن قولته « هى » أذهلتنى فقلت كرجع الصدى :

— مس جيسل . مس جيسل .

فانتفض عنى غاضبا فتشبثت بما قال وأنا أكاد أسقط من الاغماء ... خاشية أن يكون هذا تتمة لما فعلناه بفلورا ، وجعلتنى خشيتى أحاول أن أظهره على أن الأمر خير من ذلك.

— ليست مس جيسل ... انه عند النافذة ... أمامنا تماما انه هناك .. الفزع الجبان .. هناك للمرة الأخيرة !

واهتزت رأسه كالكلب حيل بينه وبين الشواء ، وانتفض انتفاضة خافتة يطلب الهواء والنور ، ثم انقلب على فى ثورة شاحبة ، حائرة ، ينظر عبثا فى كل أرجاء المكان فلا يرى شيئا على الاطلاق . وان كان وجود الشبح اذ ذاك يملأ أحاسيسى ،

فكأنما الحجرة لم تصبح الا مسرى السم الذى يشيع منه.

— انه هو .

كنت قد عقدت العزم على أن أصل الى ما أريد من برهان. فشحذت أعصابى جميعا لأتحداه .

— ماذا تعنين بهو ؟

— بيتر كوينت أيها الشقى .

فدار بوجهه ثانية فى أرجاء الغرفة وتقلص فى ضراعة :

— أين ؟

مازال اذعانه لوقع الاسم يرن فى مسمعى حتى الآن ، ومازلت أتملّى امتداحه لاخلاصى .

— وما يعنينا من أمره الآن يا عزيزتى ، بل ما أهميته فى أى وقت من الأوقات ... انك لى .

وصحت بالوحش فى تحد :

— لكنه فقدك الى الأبد .

وحتى أوضح عملى قلت لميلز :

— هناك ... هناك .

والتفت لفتة وامضة حواليه ، وحملق ، فلم ير غير اليوم

الهادىء . وملكنى الزهو لاختفاء الشبحولكن لم أكد ،فقد صاح ميلزفجأة صيحة من ألقى به الى بئر ليست بذات قرار، فأحطت به كأنى أقيه أن يهوى الى هذه البئر . لقد أحطت به — بجميعى — ولك أن تتخيل مدى ما لعاطفتى منقوة.

ولكن ما هى الا هنيهة حتى هالتنى حقيقة ما أحطت به . كنا وحيدين مع اليوم الهادىء وكانقلبه الصغير السليبقد كف عن الوجيب .

مطبعة مصر ٢٤٦٧/٥٨/٣٠٠٠

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://www.facebook.com/books4all.net